

الفصل التاسع والثلاثون

البابوات والمجمع

١٥١٧ - ٦٥

١ - البابوات يكرهون على الدفاع

لقد أرجأنا إلى آخر هذا المجلد هذه المهمة الشاقة على كاتب غير كاثوليكي ، مهمة فهم رد فعل البابوات للتحدي الذي واجههم به الإصلاح البروتستنتي ، ثم وصفه في غير ميل ولا تحيز .

لقد كان رد الفعل أول الأمر دهشة متألمة . ولا عجب ، فبابوات فترة الإصلاح البروتستنتي ، ربما باستثناء واحد ، كانوا رجالا طيبين ، على قدر ما يتاح لرجال دولة أن يكونوا ، لا مجردين من حب الذات أو نخالين من الخطايا ، بل في جوهرهم مهذبين رحماء أذكفاء ، مقتنعين في إخلاص بأن الكنيسة مؤسسة ليست رائعة في إنجازاتها فحسب ، ولكنها ما زالت ضرورة لا غنى عنها لصحة الإنسان الأوربي الخلقية وسلامه النفسي . وإذا سلمنا بأن خدام الكنيسة البشريين قد سقطوا في رذائل خطيرة ، أفلا نجد عيوباً كهذه أو شراً منها في كل إدارة علمانية ؟ وإذا كنا نحجم عن الإطاحة بالحكومة المدنية عقاباً لها على جشع أمرائها واختلاسات موظفيها ، فهل يكون إحجامنا أقل عن هدم كنيسة ظلت ألف سنة الأم التي غدت الحضارة الأوربية بالدين والتعليم والأدب والفلسفة والفن ؟ . وأي ضمير في أن تبدو بعض العقائد التي روى أنها معوان على النهوض بالفضيلة والنظام عسيرة المضم على المؤرخ أو الفيلسوف - وهل

التعاليم التي يقترحها البروتستنت أكثر منطقاً أو أسهل تصديقاً إلى الحد الذي يبرر أن تقلب أوروبا رأساً على عقب بسبب هذا الخلاف ؟ . إن التعاليم الدينية على أية حال لا يحددها منطق القلة بل حاجات الكثرة ، إنها إطار للعقيدة يمكن في نطاقه تنشئة الإنسان العادي الميال بطبيعته إلى ارتكاب عشرات الأفعال غير الاجتماعية . ليكون مخلوقاً يملك من الدربة وضبط النفس ما يكفي لجعل المجتمع والحضارة أمراً ممكناً . ولو أن هذا الإطار حطم . لكان لزاماً بناء إطار آخر ، ربما بعد قرون من الفوضى الخلقية والمادية . أليس دعاة الإصلاح البروتستنتي متفقين مع الكنيسة على أنه لا جدوى من الدستور الخلقى ما لم يعززه الإيمان الدينى ؟ أما الطبقات المفكرة فهل تراها حققت أى مزيد من الحرية أو السعادة تحت إمرة الأمراء البروتستنت عنها تحت إمرة البابوات الكاثوليك (٥) ؟ ألم يزدهر الفن تحت زعامة الكنيسة ، وألا يذوى تحت خصومة المصلحين البروتستنت الذين أرادوا أن ينتزعوا من الناس تلك الصور التي تغذو ما في حياتهم من شعر وأمل ؟ وأى مبررات قاهرة تدعو في رأى العقول الناضجة إلى تفتيت العالم المسيحى إلى مذاهب لا تحصى ، متنازعة ، مبطل بعضها للبعض ، عاجزة بمفردها أمام غرائز البشر ؟ .

إننا لا نستطيع أن نعرف هل كانت هذه مشاعر البابوات المعاصرين لحركة الإصلاح البروتستنتى ، لأن القادة النشطين قلما يذيعون على الناس فلسفاتهم . ولكن لنا أن نتصور الموقف النفسى للبابا ليو العاشر (١٥١٣ - ٢١) على هذا النحو ، إذ وجد البابوية تهتز تحت قدمية بمجرد أن دعى للاستمتاع بها . كان رجلاً يشبه الكثيرين منا - مذنب بالخطيئة وبالإهمال

(*) يقول فاقد من أفوى وأعلم نقاد الكنيسة « قبل ان تلاب ثورة لوثر كانت كل أرجاء أوروبا الكاثوليكية تتمتع بقدر كبير من حرية الفكر والكلام » . « هنرى لى ، تاريخ محكمة التفتيش فى أسبانيا ، ص ٤١١ الجزء الثالث .

الإجرامى ، ولكنه في جملة جدير بالصفح عنه . كان عادة أطف الناس وأكثرهم عطفاً ، عليه رزق نصف شعراء روما ، ومع ذلك فقد لاحق مهرطى بريشا حتى الموت ، وحاول أن يؤمن بأن الأفكار الممزقة للكنيسة يمكن أن تنتزع من البشر بحرق أصحابها . وقد أظهر من الحلم مع لوثر قسارى ما ننتظر من بابا ومن عضو في أسرة مديتشي ، ولنتصور أن الوضع انعكس ، وكيف كان البابا مارتن يمحى المتمرد ليو محقاً ! لقد حسب ليو حركة الإصلاح البروتستنتى نزاعاً غير مهذب بين رهبان أجلاف . ومع ذلك ففي بواكير عام ١٥١٧ ، وفي بداية رياسته البابوية ، أتى جيانفرانشكو بيكو ديلا ميراندولا (ابن أخى بيكو الأشهر منه) أمام البابا والكرادلة خطاباً يسترعى الاهتمام « يرسم فيه بأحلك الألوان ذلك الفساد الذى تسلل إلى الكنيسة » ويتنبأ بأنه « لو أن ليو . . . أبى إبراء الجراح ، فانه يخشى أن الله نفسه لن يستعمل بعد اليوم علاجاً بطيئاً ، بل سيبتز ويبيد الأعضاء المريضة بالنار والسيف » (١) . ولكن ليو انصرف على الرغم من هذا الإنذار إلى الاحتفاظ بتوازن للقوى بين فرنسا والإمبراطورية حماية للولايات البابوية . يقول مؤرخ كاثوليكي : « لم يفكر قط في إصلاح على النطاق الواسع الذى أصبح ضرورياً . . . وظلت الإدارة البابوية في روما دنيوية شأنها في أى وقت مضى » (٢) .

وخير برهان على أنه لم يعد سبيل إلى الإصلاح إلا أن يأتى بضربة من الخارج هو إنخفاق أدريان السادس (١٥٢٢ - ٢٣) . ذلك أنه سلم بهذه المفاسد واضطلع باصلاحها في القمة ، ولكن أهل روما سخروا منه وسبوه لأنه يهدد مواردهم من ذهب الأقطار الواقعة وراء الألب . وبعد عامين من النضال ضد هذه الأنانية الجاهلة مات أدريان قهراً .

بيد أن العاصفة المتجمعة تفجرت على رأس كلمنت السابع (١٥٢٣ -

٣٤) . لقد كان من خيرة البابوات فكراً وخلقاً ، رحيماً كريماً ، دافع عن اليهود المطاردين ، ولم يشارك في الانحلال الجنسي أو المالى المحيط به ،

وواصل إلى نهاية حياته المضطربة تغذية الفن والأدب الإيطاليين برعايته
الذكية المميزة . ولعل ما حظى به من تعليم رفيع حال بينه وبين أن يكون
إدارياً ناجحاً ، وكان في ذكائه من الحدة ما أتاح له رؤية المبررات
الحسنة لكل مسلك في كل أزمة : وأوهن علمه من شجاعته ، وأغضبت
ذنباته الدولة تلو الدولة . على أننا لا نملك إلا التعاطف مع رجل توافر
له حسن النية الشديد ، رجل رأى روما تنهب تحت بصره ، ورأى نفسه
سجين غوغاء وإمبراطور ؛ رجل منعه ذلك الإمبراطور من محاولة الوصول
إلى صلح معقول مع هنري الثامن ؛ رجل أكره على أن يختار بين أمرين
أحلاهما مر ، أن يخسر إما هنري وإنجلترا ، وإما شارل وألمانيا ؛ رجل
قيل له حين احتج على تحالف فرنسوا مع العثمانيين ، والقائل هو ذلك
الملك . « المسيحي جداً » ، إنه إذا بدر منه مزيد من الاحتجاج فان فرنسا
ستطلق البابوية . إن أحداً من البابوات لم يتجرع مثله كأس المنصب حتى
هذه الثالثة المرة .

وكانت أخطاؤه وبيلة . فهو حين أساء تقدير خلق شارل وموارده ،
وبهذا شجع على « نهب روما » أصاب البابوية بلطمة شجعت شمال ألمانيا
على نبذ الولاء لروما . وحين توج الرجل الذي أذن بذلك الهجوم فقد
احترام العالم ، حتى العالم الكاثوليكي . وقد أذعن لشارل من جهة
لافتقاره إلى القوة المادية اللازمة للمقاومة ، ومن جهة أخرى لخشيته من
أن إمبراطوراً أقصاه البابا عن وده قد يدعو مجمعاً عاماً من العلمانيين
ومن رجال الدين ، ويمسك بزمام السلطين الكنسية والزمنية جميعاً .
ويتم إخضاع الكنيسة للدولة المتمردة ، بل ربما يخلعه باعتباره ابناً غير
شرعي^(٣) . ولوأ تبحت لكلمت الشجاعة التي أبدأها عمه لورنزو مديتشي
في نابلي عام ١٤٧٩ ، لبادر بدعوة مجمع قد يوفق تحت قيادته المتحررة
في إصلاح أخلاقيات الكنيسة وتعاليمها ، وفي إنقاذ وحدة العالم المسيحي الغربي .

أما خليفته فقد بدا لأول وهلة حائزاً على جميع شروط الذكاء والخلق .
وأقر الجميع بأن أليساندرو فارنيزي ، الذي اتخذ اسم بولس الثالث ،
هو الرجل الصالح لأرفع منصب في العالم المسيحي ، فقد ولد في أسرة
غنية مثقفة ، وتعلم الآداب القديمة على يد بومبونيوس لايتوس ، ونضج
أديباً إنسانياً وسط أسرة مديتشي بفلورنسة ، وقربه بابا أوقعته أخته من
قبل في شباك شعرها الذهبي ، ورسم كرينالا في الخامسة والعشرين
(١٤٩٣) ، وأثبت كفايته في مهام دبلوماسية عسيرة ، وارتقى إلى مقام
مرموق وغير منازع في مجمع الكرادلة ، ثم انتخب للبابوية بالإجماع في
عام ١٥٣٤ . ولم ينل من قدره كثيراً إنجابه أربعة أبناء قبل أن يرسم
قسيساً في عام ١٥١٩ ، ومع ذلك فقد ظهر في خلقه ، كما ظهر في مجرى حياته
العملية ، تقلب وتناقضات ، وبعض هذا راجع لأنه وقف كعمود مهزوز
بين النهضة التي أحبها وبين حركة إصلاح بروتستنتي لم يستطع فهمها
أو اغتفارها . ومع أنه كان رقيق البدن ، فقد سلخ خمسة عشر عاماً من
الزعازع السياسية والداخلية . ومع أنه تزود بكل ثقافة عصره ، فإنه كان
يلجأ بانتظام إلى المنجمين ليحددوا له أكثر الساعات مواتاة لرحلاته
أو قراراته بل ومقابلاته (٤) . ومع أنه كان رجلاً شديد الحساسية ، ميالا
بين الحين والحين إلى نوبات الغضب ، فقد كان معروفاً بضبطه لنفسه .
وقد وصفه تشليني - الذي اضطر لإبداعه السجن - بأنه رجل « لا إيمان
له بالله ولا بغيره » (٥) . وهذا يبدو غلوفاً في الحكم عليه ، فما من شك في أن
بولس كان يؤمن بنفسه ، إلى أن أضعف مسلك ذريته في سنوات عمره
الأخيرة إرادة الحياة فيه . وقد عوقب حيث أثم ، فقد أعاد محاباة الأقرباء
التي كانت طابع بابوية عصر النهضة ، وأعطى بياتشيزا وبارما لولده
بيرلويجي ، وكاميرينو لحفيده أوتافيو ، وخلع القبة الحمراء على ابني
أخيه البالغين من العمر أربعة عشر وسبعة عشر عاماً ورقاهما على الرغم

مما ذاع عنهما من فساد خلق . لقد كان يملك شخصية بلا خلق ، وذكاء بلا حكمة .

وقد اعترف بعدالة النقد الذي وجهه دعاة الإصلاح البروتستنتي إلى إدارة الكنيسة ، ولو كان الإصلاح الكنسي هو العقبة الوحيدة في سبيل المصالحة لحاز أن ينهي حركة الإصلاح هذه . ففي عام ١٥٥٣ أوفد بيير باولو فرجيرو ليسبر القادة البروتستنت حول حضورهم مجعماً عاماً ، ولكنه أنى أن يعد بالسماح بأي تغيير جوهرى في العقيدة المعروفة أو في سلطة البابوات . وعاد فرجيرو من ألمانيا بنحى حزين ، فقد أبلغ البابا أن الكاثوليك هناك انضموا إلى البروتستنت في التشكك في إخلاص البابا في اقتراح عقد المجمع (٦) ، وأن الأرثيدوق فرديناند شكاً من أنه لا يستطيع العثور على أب اعتراف لم يكن زانياً أو سكيراً أو جهولاً (٧) . وكرر بولس المحاولة في عام ١٥٣٦ ، وكلف بيتر فان در فورست أن يتفق مع الاوثيرين على شروط عقد مجمع ، ولكن ناخب سكسونيا صد بيتر فلم يظفر بشيء . وأخيراً بذل بولس قصارى جهد الكنيسة في الوصول إلى تفاهم مع ناقدتها ، فأرسل إلى مؤتمر براتسبون الكردينال جاسبارو كونتاريني ، وكان رجلاً لا يتطرق الشك إلى إخلاصه في الحركة الكاثوليكية الداعية للإصلاح .

ونحن لا نملك غير العطف على الكردينال الشيخ الذى اقتحم ثاوج الأبنين والألب في فبراير ومارس ١٥٤١ وهو يتوق لتتويج حياته بتنظيم السلام الدينى . وقد تأثر كل من كان في راتسبون بتواضعه ، وبساطته ، وحسن نيته . وقد توسط في صبر القديسين بين الكاثوليك إيك وفلوج وجروبر ، والبروتستنت ملانكتون وبوكر ويستوريوس . وأمكن التوصل إلى اتفاق حول الخطية الأصلية ، والإرادة الحرة ، والعماد ، والتثيبت ، والرسامة . وفي ٣ مايو كتب كونتاريني إلى الكردينال فا، نيزى مغتبطاً

« حمداً لله ؛ بالأمس وصل اللاهوتيون الكاثولوليك والبروتستنت إلى اتفاق حول عقيدة التبرير » ، ولكن لم يتيسر الوصول إلى حل وسط مقبول حول سر القربان ، فقد أبى البروتستنت الاعتراف بأن في استطاعة قسيس أن يحول الخبز والخمر إلى جسد المسيح ودمه ، وشعر الكاثوليك أن التخلي عن عقيدة التحول هذه معناه التخلي عن صميم القداس وطقوس كنيسة روما . وقفل كونتاريني عائداً إلى روما وقد أضناه الإخفاق والحزن ، ليدمغه أتباع الكردينال كارافا المترمتين في الكثلكة التقليدية بتهمة اللوثرية . ولم يفصح بولس نفسه عن استطاعته قبول الصيغ التي وقع عليها كونتاريني ، على أنه استقبله استقبالا ودياً وعينه ممثلاً للبابا في بولونيا . وهناك مات بعد وصوله بخمسة أشهر .

وأصبحت سنياسة الدين أشد اكفهراراً واختلاطاً . وتساءل بولس ألا يظفر الإمبراطور شارل الخامس من وراء تصالح البروتستنت مع الكنيسة بدولة ألمانية موحدة ، يسود السلام ربوعها ، بحيث تطلق يده في أن يولى وجهه صوب الجنوب ، ويربط أملاكه في شمالي وجنوبي إيطاليا بالاستيلاء على الولايات البابوية والقضاء على سلطة البابوات الزمنية ؟ أما فرنسوا الأول فانه لخشيته أيضاً من تهدة ألمانيا اتهم كونتاريني بالاستسلام الخزي للمهرطقين ، وتعهد بتأييد بولس تأييداً كاملاً إن هو رفض في حزم مصالحة اللوثرين (٨) - الذين كان فرنسوا يسعى إلى التحالف معهم . ويبدو أن رأى بولس استقر على أن التفاهم الديني سيكون مجلبة خراب سياسي . وفي عام ١٥٣٨ استطاع بالدبلوماسية البارعة أن يقنع شارل وفرنسوا بتوقيع هدنة في نيس ، ولما أمن شر شارل في الغرب على لما النحو حرضه على الهجوم على اللوثرين . وحين قارب شارل الانتصار ١٥٤٦ سحّب بولس الفرقة البابوية التي كان قد أرسلها إليه ، لأنه هناصاً أي ارتعد فرقاً من أن يكون في خلاص الإمبراطور من وجود

مشكلة بروتستنتية في مؤخرته ما يغريه باخضاع إيطاليا كلها لسلطانه وأصبح البابا بروتستنتياً مؤقتاً، ونظر إلى اللوثرية كأنها حامية للبابوية - تماماً كما كان سليمان القانوني حامياً للوثرية . وفي هذه الأثناء كان فرنسوا الأول - درعه الثاني ضد شارل - يحالف العثمانيين الذين هددوا المرة بعد المرة بغزو إيطاليا والمهجوم على روما . ولعلنا نغتنر بعض هذا التذبذب لبابا أرهقه الحصوم وأحدقت به المشكلات على هذا النحو ، وما من عدة لديه غير حفنة من الخند ، ولا دفاع غير إيمان لا يعمر فيما يبدو إلا قلوب الضعفاء . وفي وسعنا أن ندرك ضآلة الدور الذي لعبه الدين في هذه الصراعات على القوة حين نسمع تعليق شارل للسفير البابوي إذ علم أن بولس حول وجهه شطر فرنسا : قال الإمبراطور إن البابا أصابته في شيخوخته عدوى مرض يصيب الناس عادة في شبابهم ، هو المرض الفرنسي (١٩) .

ولم يصد بولس البروتستنتية ولا أدخل أى إصلاحات جوهرية ، ولكنه نفخ الحياة في البابوية ورد لها عظمها ونفوذها ، وظل إلى النهاية واحداً من بابوات النهضة . فقد شجع جهود ميكلانجلو وغيره من الفنانين وأمدهم بالمال ، وجعل روما المباني الحديدية ، وزين الفاتيكان بـ « الصالاريجيا » و « الكابيلاباولينا » ، وشارك في حفلات الاستقبال الفخمة ، ورحب بالحميلات من النساء على مائدته ، واستقبل الموسيقيين والمهرجين والمغنيات والراقصات في بلاطه (١٠) ، وحتى في ثمانيناته لم يكن سليل فارنيزي هذا ليفسد اللعبة على لاعبيه . وقد نقله لنا تيشان في سلسلة من اللوحات القوية - وفي أفضل هذه اللوحات (المحفوظة بمتحف نابلي) يبدو هذا الحبر الأعظم ، الذي سلخ من عمره خمسة وسبعين عاماً ، محتفظاً بقوته ، على وجهه أتحديد حفرتها مشكلات الدولة والأسرة ، ولكن رأسه لم ينحن بعد للزمن . وبعد ثلاث سنوات رسم تيشان لوحة لبولس وابني أخيه أوتافيو

والسندرو (محفوطة هي الأخرى بنابلي) كادت تتنبأ بمصيره ، فالبابا الذى انحنى الآن ظهره ونال منه الأعياء ، يبدو فيها وكأنه يستجوب أوتافيو مستريباً فى أمره . ذلك أن بييرلويجي ، بن بولس ، اغتيل عام ١٥٤٧ ، وفى عام ١٥٤٨ تمرد أوتافيو على أبيه ، ودخل فى اتفاق مع أعداء بولس ليجعل بارما ولاية إمبراطورية . وأسلم البابا العجوز نفسه للموت (١٥٤٩) بعد أن هزمه حتى أبناؤه .

وقد أخطأ خليفته فى تسمية نفسه بيوليوس الثالث (١٥٥٠ - ٥٥) ، إذ لم يكن فيه شىء من فحولة يوليوس الثانى ولا قوته ولا أهدافه الطموحة . بل إنه استأنف أساليب ليو العاشر السهلة الهينة ، واستمتع بالبابوية فى إسراف لطيف ، وكان حركة الإصلاح البروتستانتى ماتت بموت لوثر . فخرج للصيد ، واحتفظ بندماء البلاط ، وقامر بمبالغ كبيرة ، ورعى مصارعات الثيران ، ورتى لمنصب الكردينالية تابعاً له يعنى بنسناسه ، وأعطى روما على الحملة آخر رشفة رشفها من وثنية النهضة سواء فى الأخلاق والفن (١١) . وقد كلف فينولا وغيره بأن يشيدوا له خارج « البورتا ديل بوبولو » بيتاً جميلاً « فيللا دى بابا جوليو » (١٥٥٣) جعله مركزاً للفنانين والشعراء والاحتفالات . ثم كيف نفسه فى هدوء وفق سياسات شارل الخامس . وشكا النقرس فى غير أوانه ، فحاول علاجه بالصوم . ويبدو أن هذا البابا الأبيقورى مات من الزهد فى الطعام (١٢) ، وقيل من الانغماس فى اللذات (١٣) .

وجاء البابا مارتشيللوس الثانى ، وكان أقرب إلى القديسين . فحياته الخلقية بلا لوم ، وتقواه عميقة ، واختياره لشاغلي المناصب مثالى ، وجهوده لإصلاح الكنيسة مخلصه ، ولكنه مات فى اليوم الثانى والعشرين من تقلده منصب البابوية (٥ مايو ١٥٥٥) .

وكان الكرادلة أرادوا أن يعلنوا على الملأ أن معارضة الإصلاح

البروتستنتي قد وصلت إلى البابوية ، فقلدوها رجلا كان روح حركة الإصلاح في الكنيسة وصوتها ، وهو الناسك جوفاني بييترو كارافا ، الذي سمي نفسه بولس الرابع (١٥٥٥ - ٥٩) . وكان وقد بلغ التاسعة والسبعين ثابتاً على آرائه لا يحدد عنها قيد أنملة ، مكرساً نفسه لتنفيذها برسوخ في الإرادة وحدة في العاطفة لا يكادان يناسبان رجلا في سنه . كتب السفير الفلورنسي يقول : « إن البابا رجل قد من حديد ، بل إن الأحجار التي يمشي فوقها تنفث الشرر » (١٤) . كان مولده في بينيفنتو ، لذلك حمل حرارة جنوبي إيطاليا في دمه ، وبدت النار دائمة التوقد في مقلتيه الغائرتين . وكان في طبعه فورة البركان ، ولم يجرؤ على معارضته سوى السفير الأسباني تدعّمه فرق الدوق ألفا . وقد كره بولس الرابع أسبانيا لأنها سيطرت على إيطاليا ، وكما حلم يوليوس الثاني وليو العاشر بطرد الفرنسيين ، كذلك كان أول أهداف هذا الثماني النشيط تحرير إيطاليا والبابوية من السيادة الأسبانية - الإمبراطورية . فاتهم شارل الخامس بأنه ملحد مقنّع (١٥) ، وابن مجنون لأم مجنونة ، وشخص « كسيح جسداً وروحاً » (١٦) ، ودمغ الشعب الأسباني بأنه حثالة من الساميين (١٧) ، وأقسم أنه لن يعترف بفيليب واليا على ميلان . وفي ديسمبر ١٥٥٥ عقد معاهدة مع هنري الثاني ملك فرنسا وإيركولي الثاني أمير فرارة لطرد جميع القوات الأسبانية أو الإمبراطورية من إيطاليا ، فإذا تم للحلفاء النصر أخذت البابوية سيينا ، والفرنسيون ميلان ، وحكموا نابلي بوصفها ولاية بابوية ، ووجب عزل شارل وفرديناند لقبولهما شروط البروتستنت في أوجزبورج (١٨) .

وبمهزلة من هذه المهازل التي يمكن رؤيتها ، ونحن على بعد كاف ، في مآسى التاريخ ، وجد فيليب الثاني نفسه في حرب مع البابوية وهو أشد أنصار الكنيسة غيرة وتحمساً . فأمر الدوق ألفا على مضض بأن يزحف بجيش نابولي على الولايات البابوية . ولم تمض أسابيع حتى هزم الدوق

بجنوده المتمرسين بالقتال ، البالغ عددهم ١٠,٠٠٠ ، قوات البابا الضعيفة ، واستولى على المدينة تلو المدينة ، ونهب أناني ، واستولى على أوستيا ، وهدد روما (نوفمبر ١٥٥٦) . وبارك بولس معاهدة بين فرنسا والعثمانيين ، ولحا وزير خارجيته ، الكردينال كارلو كارافا ، إلى سليمان القانوني ليهاجم نابلي وصقلية (١٩) . وأرسل هنري الثاني جيشاً إلى إيطاليا يقوده فرنسوا دوق جيز ، فاستعاد أوستيا ، وهلك البابا ، ولكن هزيمة الفرنسيين في سان - كنتان أكرهت جيز على العودة برجاله سريعاً إلى فرنسا ، وزحف ألفا على أبواب روما دون مقاومة . وولول أهل روما فرقاً ، وودوا لو أن حبرهم الديني الطائش كان نزيل قبره (٢٠) ، ورأى بولس أن المزيد من القتال قد يعيد « نهب روما » الرهيب ، بل قد يحمل أسبانيا على الانفصال عن كنيسة روما . لذلك وقع في ١٢ سبتمبر ١٥٥٧ معاهدة صلح مع ألقا ، الذي عرض شروطاً سخية ، واعتذر عن انتصاره ، ولثم قدم البابا المغلوب (٢١) . وردت إلى البابا جميع أراضيها التي سبق الاستيلاء عليها ، ولكن السيادة الأسبانية على نابلي وميلان والبابوية تأكدت . وبلغ انتصار الدولة على الكنيسة منتهاه ، حتى أن الأمراء الناخبين هم الذين توجوا فرديناند حين تسلم لقب الإمبراطور من شارل الخامس (١٥٥٨) ، ولم يسمح لأى ممثل للبابا بالقيام بأى دور في مراسم الاحتفال . وهكذا كانت نهاية تتويج البابوات لأباطرة الدولة الرومانية المقدسة ، وتحقق آخر المطاف انتصار شارلمان في خلافه مع ليو الثالث .

والآن وقد تخفف بولس الرابع طوعاً أو كرهاً من أعباء الحرب ، فانه فرغ فيما بقي له من فترة بابويته للإصلاحات الكنسية والأخلاقية التي ذكرناها من قبل . وقد توجهها بطرد وزيره الإباحي الكردينال كارلو كارافا ، وإن جاء هذا الطرد متأخراً ، وبنى ابني أخ آخرين من روما ، وكانا قد شوها سمعة بابويته . وأجلت عن الفاتيكان أخيراً سبة محاباة الأقرباء التي استشرت فيه قرناً من الزمان .

٢ - الرقابة ومحكمة التفتيش

وهذا البابا الحديدي هو الذي بلغت رقابة المطبوعات في عهده غاية الصرامة واتساع المدى ، وأصبحت محكمة التفتيش ضرباً من الإرهاب كادت تبلغ وحشيته في روما ما بلغته في أسبانيا . ولعل بولس الرابع شعر بأن رقابة المطبوعات وقمع الهرطقة واجبان لا مندوحة عنهما لكنيسة أجمع الرأي البروتستنتي والكاثوليكي على أن مؤسسها هو ابن الله . لأنه إذا كانت الكنيسة من الله ، فخصومها إذن لا بد عملاء للشيطان ، والحرب الدائمة على هؤلاء الشياطين التزام ديني قبل إله مهان .

والرقابة قديمة قدم الكنيسة نفسها تقريباً . فالمسيحيون في أفسس أحرقوا في عصر الرسل كتباً في « فنون غريبة » قيل إن قيمتها بلغت « ٥٠,٠٠٠ قطعة من الفضة (٢٢) » ، وحرم مجمع أفسس (١٥٠) تداول « أعمال بولس » (٢٣) غير القانونية . وفي فترات مختلفة أمر البابوات بحرق التلمود أو غيره من كتب اليهود . وحظرت ترجمة ويكلييف وما تلاها من الترجمات البروتستنتية للكتاب المقدس لاحتوائها مقدمات وهوامش وتصحيحات معارضة للكاثوليكية . وزاد اختراع الطباعة من حرص الكنيسة على ألا تفسد أبنائها التعاليم الباطلة . فأمر مجمع اللاتيران الخامس (١٥١٦) ألا تطبع بعده كتب دون أن تفحصها الكنيسة وتوافق عليها . وأصدرت السلطات الزمنية بيانات بمحظوراتها من المطبوعات غير المرخصة : مجلس شيوخ البندقية في ١٥٠٨ ، ومجلس نواب فورمز ومراسيم شارل الخامس وفرنسوا الأول في ١٥٢١ ، وبرلمان باريس في ١٥٤٢ . وفي ١٥٤٣ وسع شارل الرقابة الكنسية على المطبوعات فشملت أمريكا الأسبانية . وفي عام ١٥٤٤ نشرت السوربون أول فهرس عام بالكتب المحرمة ، ونشرت محكمة التفتيش أول قائمة إيطالية في عام ١٥٤٥ .

وفي عام ١٥٥٩ نشر بولس الرابع أول فهرس بابوي بالكتب المحظورة ، وقد ورد فيه ثمان وأربعون طبعة مهرطقة للكتاب المقدس ، وأوقع الحرم على واحد وستين طابعاً وناشراً^(٢٤) . وقد فرض على كل كاثولكى الامتناع عن قراءة أى كتاب نشر منذ سنة ١٥١٩ دون أن يحمل اسمى المؤلف والطابع ومكان النشر وتاريخه ، وحرمت قراءة أى كتاب بعد ذلك لم يحصل على إذن كنسى "imprimatur" بطبعه . وشكا باعة الكتب وطلاب العلم من أن هذه الإجراءات معطلة لهم أو قاضية عليهم ، ولكن بولس أصر على الطاعة التامة . وأحرقت آلاف الكتب فى روما وبولونيا ونابلى وميلان وفلورنسه والبندقية - ١٠,٦٠٠ فى البندقية فى يوم واحد^(٢٥) .

وبعد موت بولس انتقد نفر من قادة الكنيسة إجراءاته لما فيها من مغالاة فى العنف وعدم التمييز ، ورفض مجمع ترنت فهرسه ، وأصدر تحريماً أكثر تنظيماً ، هو « الفهرس الثلاثى » (١٥٦٤) . وشكلت لجنة خاصة للفهرس فى ١٥٧١ لمراجعة القائمة وإعادة نشرها بصفة دورية .

ومن العسير الحكم على أثر هذه الرقابة . وعند باولو ساربنى ، وكان راهباً سابقاً ، ومعارضاً للإكليروس ، أن الفهرس « هو أبداع سر كشف إلى الآن . . . لفرض البلاهة على الناس^(٢٦) » . ولعله شارك فى أحداث اضمحلال إيطاليا الفكرى بعد عام ١٦٠٠ ، واضمحلال أسبانيا بعد عام ١٧٠٠ ، ولكن العوامل الاقتصادية والسياسية كانت أهم . والفكر الحر ، كما يقول أقوى مؤرخ إنجليزى له ، عاش فى الدول الكاثوليكية خيراً مما عاش فى الدول البروتستنتية ، وتبين حتى عام ١٧٥٠ أن الحكم المطلق للكتب المقدسة الذى فرضه اللاهوتيون البروتستنت أشد إيذاء للبحث والتفكير المستقلين من فهارس الكنيسة ومحكمة تفتيشها^(٢٧) . أياً كان الأمر فان الحركة الانسانية ذبلت ، فى الدول الكاثوليكية والبروتستنتية على السواء . ونحف التأكيد على الحياة فى الأدب ، واضمحلت دراسة اليونانية ومحبة الآداب

الوثنية ، ورمى اللاهوتيون المنتصرون الإنسانيين الإيطاليين (ولهم بعض العذر في هذا) بأنهم كفرة متغطرسون فاسقون .

ونفذت الرقابة على الكتب في تراخ حتى وكلها بولس الرابع إلى محكمة التفتيش (١٥٥٥) . وكانت هذه المؤسسة التي أنشئت أولاً عام ١٢١٧ قد انتكست سلطتها وسمعتها نتيجة لتساهل بابوات النهضة . ولكن حين أخفقت آخر محاولة للمصالحة مع البروتستنت في راتسبون ، وظهرت التعاليم البروتستنتية في إيطاليا ذاتها ، حتى بين رجال الإكليروس ، وخيف أن تتحول مدن بأسرها مثل لوكا ومودينا إلى البروتستنتية (٢٨) اشترك الكردينال جوفاني كارافا ، وإجناتيوس لويولا ، وشارل الخامس في الإلحاح على إعادة محكمة التفتيش . وأذعن بولس الثالث (١٥٤٢) ، وعين كارافا وخمسة كرادلة آخرين لإعادة تنظيم المؤسسة ، ونحول لهم سلطة تفويض كنسيين خاصين في أرجاء العالم المسيحي ، وشرع كارافا في التنفيذ بما عهد فيه من صرامة ، وأنشأ مقرا للمحكمة وسجنا ، ووضع هذه القواعد المرءوسية :

- ١ - حين يكون الإيمان موضع شك يجب ألا يكون هناك أي تأجيل ، ولا بد من اتخاذ الإجراءات الصارمة بكل سرعة إذا قامت أقل شبهة .
- ٢ - يجب ألا يكون هناك أي اعتبار لأي أمير أو حبر مهما علا منصبه .
- ٣ - الصرامة المتناهية أولى أن تستعمل مع أولئك الذين يحاولون الاحتماء بأي حاكم . ولا يعامل بالرفق والعطف الأبوى إلا من اعترف اعترافاً كاملاً .

٤ - يجب ألا يحط إنسان من قدره بإبداء التسامح نحو المهرطقين أياً كان نوعهم ، ونحو الكالفنيين على الأخص (٢٩) .

فأما بولس الثالث ومارتشييلوس الثاني فقد قيدا حماسة كارافا ، واحتفظا بحق العفو عند الاستئناف . وأما يوليوس الثالث فكان أوهم من أن يتدخل في عمل كارافا ، فأحرق في عهده نفر من المهرطقين في روما .

وفي عام ١٥٥٠ أمرت محكمة التفتيش الجديدة بمحاكمة أي كاهن كاثوليكي لا يعظ ضد البروتستنتية . فلما ارتقى كارافا نفسه عرش البابوية باسم بولس الرابع ، انطلقت المؤسسة إلى العمل بكل طاقتها ، « واكتسبت المحكمة بفضل صرامته الحارقة سمعة واسعة ، بحيث لم يكن هناك كرسي قضاء آخر في الأرض يتوقع الناس منه إصدار أحكام أشد بشاعة وإرهاباً » على حد قول الكردينال سيريباندو^(٢٠) . ووسع اختصاص محكمة التفتيش حتى شمل التجديف والمتاجرة بالرتب الكهوتية (السيمونية) ، واللواط ، والزواج المتعدد ، وهتك العرض ، والقوادة ، وانتهاك نظم الكنيسة في الصوم ، وغير هذه من الذنوب التي لا تمت للهرة بسلامة . ونحن نسوق أيضاً هذه الفقرة من كلام مؤرخ كاثوليكي عظيم :

« كان البابا العجول السريع التصديق يعير أذنأ صاغية لكل اتهام ولو كان شديد السخف . . . وكان رجال محكمة التفتيش الذين لم يفتروا البابا عن حضهم يشمون الهرة بسلامة في حالات كثيرة ما كان المراقب الهادئ الحذر ليكشف فيها أثراً للهرة . . . وحرص الحاسدون والمفترون على بذل الجهد في تسقط الكلمات المريرة من شفاه رجال كانوا عمداً راسخة للكنيسة ضد المبتدعين ، وعلى تليفق تهم الهرة لهم . . . وبدأ عصر إرهاب فعلي ملأ روما كلها بالخوف »^(٢١) .

وفي قمة هذا العنف (٣١ مايو ١٥٥٧) أمر بولس بالقبض على الكردينال جوفاني موروني ، أسقف مودينا ، وفي ١٤ يونيو أمر الكردينال بولي بأن يتخلى عن سلطة الممثل البابوي في إنجلترا ويحضر إلى روما ليواجه محاكمته بتهمة الهرة بسلامة . وقال البابا إن مجمع الكرادلة نفسه سرت إليه دعوى الهرة بسلامة . أما بولي فقد بسطت عليه الملكة ماري حمايتها ومنعت تسليم الاستدعاء البابوي له . وأما موروني فقد اتهم بأنه وقع اتفاق راتسون حول عقيدة التبرير بالإيمان ، وبأنه تهاون مع المهرة بسلامة الداخليين في

نطاق سلطته ، وبأنه كان صديقاً لبولى ، وفتوريا كولونا ، وفلامينيو ، وغيرهم من الشخصيات الخطرة ، وبعد أن قضى ثمانية عشر يوماً سجيناً فى قلعة سانت أنجيلو أصدر قضاة التفتيش حكمهم ببراءته ، وأمروا بالإفراج عنه ، ولكنه أبى أن يبرح زنزانه حتى يقر بولس ببراءته . ولكن بولس رفض ، فظل موروئى سجيناً حتى أطلقه موت البابا . وأما فلامينيو فقد فوت على محكمة التفتيش غرضها بموته ، « ولكننا أحرقنا أخاه شيزارى فى الميدان المواجه لكنيسة الميرفا » (٢٢) ، كما قال بولس : وراح الخبر المجنون يطارد أقرباءه هو بشبهات الهرطقة فى عناد لا يعرف التحيز . قال « لو أن أبى ذاته كان مهرطقاً لجمعت الحطب لحرقه » (٢٣) .

كان بولس لحسن الحظ بشرا نهايته الموت ، فمضى لحسابه . بعد أربع سنوات من الحكم . واحتفلت روما بموته بأربعة أيام من الشغب المرح ، حطمت خلالها الجماهير تمثاله ، وجرتة فى الشوارع ، ثم أغرقته فى نهر تير ، وأحرقت مبانى محكمة التفتيش ، وأطلقت سبائها ، وأتلفت وثائقها (٢٤) . ولعل البابا كان يرد على هذا بأنه ما كان فى استطاعة رجل أن يصلح أخلاق روما ومفاسد الكنيسة إلا إذا أوتى صرامته وشجاعته اللتين لا هواده فيهما ، وأنه وفق فى هذه المغامرة بينما أخفق أسلافه . ومن أسف أنه فى محاولته إصلاح الكنيسة تذكر توركويمادا ونسى المسيح .

وتنفس غرب أوروبا كله الصعداء حين اختار مجمع الكرادلة سنة ١٥٥٩ جوفانى أنجيلو دى مديتشى حبراً أعظم باسم البابا بيوس الرابع . لم يكن مليونيراً مديتشيا ، بل ابن جاب للضرائب ميلانى ، اشتغل بالمحاماة ليكسب قوته ، وظفر باعجاب بولس الثالث وثقته ، فعين كردينالا ، واشتهر بالذكاء والميل إلى أعمال البر ، فلما ارتقى عرش البابوية ابتعد عن الحرب ووبخ أولئك الذين كانوا يشيرون بالسياسات العدوانية ، ولم يقض على محكمة التفتيش ، ولكنه أشعر قضاتها بأنهم

« يسرونه أكثر لو ياشروا عملهم بلطف السادة المهذبين لا بجلافة الرهبان » (٢٥).
وأراد اغتياله متعصب حسبه مفرطاً في اللين ، ولكنه شل رهبة حين
مر به البابا هادئاً مجرداً من أسباب الدفاع . وقد برهن على ما أوتى من
روح المصالحة إذ سمح لأساقفة ألمانيا الكاثوليك بمناولة سر القربان بالخبز
والخمر كليهما . وأعاد عقد مجمع ترنت ، وقاده إلى خاتمة اتسمت بالنظام ،
ثم فارق الحياة عام ١٥٦٥ بعد رياسة دعمت في هدوء حركة المعارضة
للإصلاح البروتستنتي .

٣- مجمع ترنت (١٥٤٥ - ٦٣)

قبل أن يأتي لوثر بزمن طويل ارتفعت مئات الأصوات مطالبة بعقد
مجمع يصلح الكنيسة . وطالب لوثر بعرض نزاعه مع البابا على مجمع
عام حر ، وطالب شارل الخامس بعقد مجمع كهذا بأمل نفض يده
من المشكلة البروتستنتية ، وربما بأمل تأديب البابا كلمنت السابع ،
واستطاع ذلك البابا الذي أنهكته الهجمات المتكررة أن يجد مائة عذر
لتأجيل مثل هذا المجمع حتى يصبح بعيداً عن متناوله . فقد تذكر ما حدث
للسلطة البابوية في مجع كونيستانس وبازل ، وما كان يسمح لأساقفة
معادين له ، أو لمدوني الإمبراطور ، بدس أنوفهم في سياساته أو مصاعبه
الداخلية أو مولده . ثم كيف يستطيع مجمع أن ينقد الموقف ؟ ألم يرفض
لوثر الاعتراف بالمجامع كما رفض الاعتراف بالبابوات ؟ ولو قبل
البروتستنت في مجمع وسمح لهم بحرية الكلام فان النزاع الذي سيسفر
عنه هذا القبول سيوسع الانشقاق ويزيده مرارة ويزعج أوروبا بأسرها ؛
ولو حيل بينهم وبينه لأثاروا غضب التمرد والعصيان . وأراد شارل أن
يعقد المجمع على أرض ألمانية ، ولكن فرنسوا أبي السماح للإكليروس
الفرنسي بحضور اجتماع خاضع لسيادة الإمبراطور . يضاف إلى هذا

رغبة فرنسوا في الإبقاء على النيران البروتستنتية مشتعلة في المؤخرة الإمبراطورية . لقد كان الموقف مختلطاً أشد الاختلاط .

فلما جاء بولس الثالث ساورته كل مخاوف كلمنت ، ولكنه كان أشجع منه . ففي عام ١٥٣٦ أصدر دعوة لمجمع عام يجتمع في مانتوا في ٢٣ مايو ١٥٣٧ ، ودعا البروتستنت لحضوره . وافترض أن جميع الأطراف التي ستحضره ستقبل النتائج التي يخلص إليها المجمع ؛ ولكن ما كان للبروتستنت وهم أقلية في مؤتمر كهذا أن يقبلوا مثل هذا الالتزام . وأشار لوثر بعدم الحضور ، ورد مؤتمر البروتستنت المنعقد في شمالكالدين دعوة البابا دون أن يفتحها . وواصل الإمبراطور إصراره على عقد المجمع في أرض ألمانية ، وكانت حجته أنه لو عقد في أرض إيطالية لزدحم بالأساقفة الإيطاليين ولأصبح لعبة في يد البابا . وبعد الكثير من المفاوضات والتأجيلات وافق بولس على عقد المجمع في ترنت ، وكانت تقع في أرض إمبراطورية وتخضع لشارل على الرغم من غلبة الإيطاليين على سكانها . ودعى المجمع للانعقاد فيها في أول نوفمبر ١٥٤٢ .

ولكن ملك فرنسا رفض أن يلعب دوره . وأبى نشر دعوة البابا في أرجاء ملكه ، وهدد بالقبض على أي فرد من الإكليروس الفرنسي يحاول حضور مجمع منعقد على أرض عدوه ، فلما افتتح المجمع لم يكن حاضراً سوى بضعة أساقفة كلهم إيطاليون ، وأجل بولس الاجتماع حيناً حتى يسمح شارل وفرنسوا بانعقاد المجمع بكامل عدده . وبدأ أن صلح كريبي قد أزاح العقبات من الطريق ، ودعا بولس إلى عودة انعقاد المجمع في ١٤ مارس ١٥٤٥ . ولكن تجدد الخطر على الإمبراطور من العثمانيين أكرهه ثانية على مصالحة البروتستنت ، فطلب تأجيل المجمع مرة أخرى ، ولم يبدأ « المجمع المسكوني التاسع عشر للكنيسة المسيحية » دوراته النشيطة إلا في ١٣ ديسمبر ١٥٤٥ .

ولكن حتى هذه البداية لم يحالفها التوفيق ، ولم تبلغ قط مبلغ « نصف العمل » . ذلك أن البابا الذي قارب الثمانين ظل في روما ، يرأس المجمع « غيابياً » ، ولكنه ندب عنه ثلاثة كرادلة يمثلونه : ديل مونتى ، وتشرفينى ، وبولى . وكان قوام المجمع كردينال ترنت مادروزو ، وأربعة رؤساء أساقفة ، وعشرين أسقفاً ، وخمسة من قادة الطرق الديرية ، وبعض رؤساء الأديار ، وبضعة لاهوتيين ؛ ولم يكن في وسع المجمع حتى ذلك الحين الزعم بأنه « مسكونى » - أى عالمى (٣٦) . وبينما كان حق التصويت في مجع كونستانس وبازل متاحاً للقساوسة ، والأمراء ، وبعض العلمانيين ، كما كان متاحاً للأساقفة ، وكان التصويت بالمجموعات القومية ، فان هذا الحق قصر هنا على الكرادلة والأساقفة والقواد ورؤساء الأديار ، وكان التصويت بالأفراد ، ومن ثم فان الأساقفة الإيطاليين - وأكثرهم مدين للبابوية أو موال لها لأسباب أخرى - سيطروا على المجمع بأغليتهم العددية . وحضرت اللجان المختصة في روما بإشراف البابا المسائل التي لا يمكن عرض غيرها للمناقشة (٣٧) . وقد لاحظ مندوب فرنسى أنه ما دام المجمع يزعم بأنه يعمل بإرشاد الروح القدس ، فان الأقتوم الثالث كان يأتى إلى ترنت بانتظام في حقبة البريد القادمة من روما (٣٨) .

ودارت أولى المناقشات حول الإجراءات : أمن الواجب البدء بتعريف الإيمان ثم البحث في الإصلاحات ، أم العكس ؟ فأما البابا ومؤيدوه الإيطاليون فأرادوا البدء بتعريف للعقائد . وأما الإمبراطور ومؤيدوه فأرادوا البدء بالإصلاح ، أملا من شارل في تهدئة البروتستنت أو إضعافهم أو إحداث مزيد من الانقسام في صفوفهم ، وأملا من الأحرار الألمان والأسبان أن تقلل الإصلاحات من سلطة البابا على الأساقفة والمجامع . وقد أمكن الوصول إلى حل وسط ، فاتفق على أن تحضر لجان مترامنة القرارات حول العقيدة والإصلاح ، وتعرض هذه القرارات على المجمع بالتناوب .

وفي مايو ١٥٤٦ أوفد بولس اثنين من اليسوعيين هما لاينيز وسالميرون ليساعدا مندوبيه في الشؤون اللاهوتية وفي الدفاع عن البابا ؛ ثم انضم إليهما بيتر كانيزيوس وكلود لوجي . وما لبث تفقّه اليسوعيين الذي لم يضارعهم فيه أحد أن أكسبهم نفوذاً طاغياً في المناقشات ، وقاد إصرارهم على سلامة العقيدة المجمع إلى إعلان الحرب على أفكار الإصلاح البروتستنتي بدلا من التماس التوفيق أو الوحدة . وكان حكم الأغلبية فيما يبدو أن أي تنازلات للبروتستنت لن ترأب الصدع ؛ وأن الملل البروتستنتية تعددت وتنوعت بحيث لا يمكن لأي حل وسط أن يرضى بعضها دون أن يغضب البعض الآخر ، وأن أي تغيير جوهري في العقائد التقليدية من شأنه أن يضعف بنیان الكاثوليكية العقائدي واستقرارها كله ؛ وأن السماح للعلمانيين بالسلطات الكهنوتية سيقوض السلطة الأدبية للكهنوت والكنيسة ، وأن هذه السلطة لا غنى عنها للنظام الاجتماعي ؛ وأن لاهوتاً يرتكز بصراحة على الإيمان سيحبط نفسه إذا خضع لأهواء التفكير الفردي . وبناء عليه فان دورة المجمع الرابعة (أبريل ١٥٤٦) أكدت من جديد كل فقرة من فقرات العقيدة النقية ، وادعت سلطاناً متساوياً لتقليد الكنيسة وللكتاب المقدس ، وأعطت الكنيسة الحق دون غيرها في شرح الكتاب وتفسيره ، وأعلنت أن ترجمة جيروم اللاتينية هي الترجمة والنص النهائي للكتاب ؛ وتقرر أن القديس توما الأكويني هو الشارح العمدة للاهوت النقي من الشواذب ، ورفع كتابه « خلاصة اللاهوت » إلى مقام لا يعلوه فيه إلا الكتاب المقدس والمراسيم البابوية (٣٩) . وهكذا نرى أن الكاثوليكية بوصفها ديناً ذا سلطان معصوم بدأت عملياً من مجمع ترنت ، وتبلورت على هيئة استجابة عنيدة لذلك التحدي الذي واجهتها به البروتستنتية ، والعقلانية ، والرأي الفردي . وانتهى بذلك « اتفاق الجنتلمان » بين كنيسة النهضة والطبقات المفكرة .

ولكن إذا كان الإيمان حيويًا إلى هذا الحد . فهل كان أيضاً كافياً في ذاته لاستحقاق الخلاص كما زعم لوثر ؟ لقد ارتفعت في الدورة الخامسة (يونيو ١٥٤٦) مناقشات عنيفة حول هذه النقطة ، وأمسك أحد الأساقفة بلحية آخر وانتزع منها حفنه من الشعر الأبيض ، ولما سمع الأمبرطور بما وقع أرسل إلى المجمع يقول إنه إن لم يهدأ فسيأمر بالقاء نفر من الأساقفة في نهر أدبيج ليهديء نائرتهم^(٤٠) . ودافع ريجينالد بولي عن رأى قريب قرباً خطراً من رأى لوثر ، حتى أن الكردينال كارافا (الذى أصبح بولس الرابع فيما بعد) دمغه بالهرطقة ، وانسحب بولي من المعركة قاصداً بادوا ، واعتذر بالمرض عن التخلف عن حضور المجمع^(٤١) . ودافع الكردينال سيريباندو عن الصيغة التوفيقية التي عرضها في راتسبون الكردينال كنونتاريني ، وكان قد مات ، ولكن لاينز أقنع المجمع بأن يشدد على أهمية الأعمال الصالحة وحرية الإرادة ، معارضاً بذلك لوثر معارضة كاملة .

أما إجراءات الإصلاح الكنسي فكانت حركتها أقل نشاطاً من تعريفات العقيدة . كان أسقف كاتدرائية القديس مرقس قد افتتح دورة ٦ يناير ١٥٤٦ برسمه صورة قائمة للفساد الذي استشرى في العالم ، والذي لن يفوقه في ظنه فساد الأجيال القادمة إطلاقاً ، وقد عزا هذا الفساد « إلى شر الرعاة دون سواه » . وقال إن هرطقة لوثر سببها الرئيسي خطايا الإكليروس ، وإن إصلاح الإكليروس خير سبيل لقمع هذا التمرد^(٤٢) . ولكن الإصلاح الجوهرى الوحيد الذى تحقق في هذه الدورات الأولى كان ذلك الذى حرم على الأساقفة الإقامة بعيداً عن أسقفياتهم ، أو شغل أكثر من أسقفية . واقترح المجمع على البابا أن ينقل إصلاح قسم الوثائق من التوصيات النظرية إلى الأوامر الفعلية ، ولكن بولس كان يريد أن تترك شئون الإصلاح للبابوية ، فلما أصر الإمبراطور على مزيد من السرعة في مناقشات الإصلاح في المجمع ، أمر البابا مندوبيه بأن يقترحوا نقل

المجمع إلى بولونيا - التي تسمح لروما بأن تشرف على أعمال المجمع إشرافاً أسرع لأنها واقعة في الولايات البابوية . ووافق الأساقفة الإيطاليون ، أما الأساقفة الإسبان والإمبراطوريون فاحتجوا ، وظهر في ترنت طاعون غير ذى بال في الوقت المناسب ففضي على أحد الأساقفة ، وانتقلت الأغلبية الإيطالية إلى بولونيا ، أما الباقيون فظلوا في ترنت . ورفض شارل الاعتراف بدورات بولونيا . وهدد بعقد مجمع منفصل في ألمانيا . وبعد عامين من الجدل والمناورة خضع بولس وعطل مجمع بولونيا (سبتمبر ١٥٤٩) .

وخف توتر الموقف بموت بولس . ووصل يوليوس الثالث إلى تفاهم مع الإمبراطور ، فدعا المجمع للانعقاد مرة أخرى في ترنت في مايو ١٥٥١ لقاء وعد من شارل بالامتناع عن تأييد أى إجراء من شأنه اختزال سلطة البابا ، ووافق البابا على إعطاء اللوثرين فرصة الإدلاء بأقوالهم . ولكن هنرى الثانى ملك فرنسا رفض الاعتراف بالمجمع لانه كره هذا التقارب بين البابا والإمبراطور . فلما اجتمع كان عدد الحاضرين ضئيلاً فاضطر إلى تأجيل اجتماعاته . ثم عاد إلى الاجتماع في أول سبتمبر بحضور ثمانية من رؤساء الأساقفة ، وستة وثلاثين أسقفاً ، وثلاثة رؤساء أديار . وخمسة قادة ، وثمانية وأربعين لاهوتياً . ويواكيم الثانى ناخب براندنبورج ، وسفراء يمثلون شارل وفرديناند .

وأكدت الدورة الثالثة عشرة للمجمع (أكتوبر ١٥٥١) من جديد عقيدة التحول الكاثوليكية ، فالكاهن بتقديسه الخبز والخمر في سر القربان يحولهما فعلاً إلى جسد المسيح ودمه . بعد هذا لم يعد هناك جدوى من الاستماع إلى البروتستنت ، ولكن شارل أصر على هذا . واختار دوق فورتمبرج ، وموريس ناخب سكسونيا ، وبعض مدن جنوبي ألمانيا - اختار هؤلاء أعضاء وفد بروتستنتى ، ووضع ملانكتون بياناً بالعقيدة اللوثرية لرفعه .

إلى المجمع : وضمن شارل للمندوبين سلامة المرور ، ولكنهم إذ تذكروا كونستانس وهس طلبوا أيضاً ضماناً بسلامة المرور من المجمع ذاته . وبعد نقاش طويل منحهم المجمع الضمان . ولكن راهباً دومنيكياً ذكر في عظة تدور حول مثل الزوان ، ألقاها في ذات الكاتدرائية التي انعقدت فيها دورات المجمع ، أن زوان المهرطقين قد يمهلون إلى أجل ، ولكن لا بد في النهاية من حرقهم (٤٣) .

وفي ١٤ يناير ١٥٥٢ ألقى المندوبون البروتستنت كلمتهم في المجمع : فاقترحوا تأكيد المراسيم التي أصدرها مجمعاً كونستانس وبازل بشأن تحويل المجمع ساطناً أعلى على البابوات ، وأن يحل أعضاء المجمع الحاضر من عهود الولاء للبابا يوليوس الثالث ، وأن جميع القرارات التي وصل إليها المجمع حتى ذلك التاريخ يجب إلغاؤها ، وأنه يجب أن يعيد مجمع موسع يمثل فيه البروتستنت تمثيلاً كافياً مناقشة الموضوعات من جديد (٤٤) . ومنع يوليوس الثالث بحث هذه المقترحات . وقرر المجمع تأجيل البت فيها إلى ١٩ مارس ، وهو التاريخ الذي يتوقع فيه وصول مزيد من المندوبين البروتستنت .

وفي أثناء هذه العطلة طرأت على اللاهوت تطورات حربية على نحو غير متوقع . ففي يناير ١٥٥٢ وقع ملك فرنسا حلفاً مع البروتستنت الألمان ، وفي مارس زحف موريس أمير سكسونيا على إنزبروك ، وفر شارل ، وما كان لأية قوة أن تمنع موريس إن شاء من الاستيلاء على ترنت والإطاحة بالمجمع . واختفى الأساقفة واحداً بعد الآخر ، وفي ٢٨ أبريل عطل المجمع رسمياً . ونزل فرديناند بمقتضى معاهدة باساو (٢ أغسطس) عن الحرية الدينية للبروتستنت المنتصرين حربياً ، فلم يعد المجمع يهتم في شيء بعد هذا .

ورأى بولس الرابع أن من الحكمة أن يدع المجمع يسبت خلال

رياسته . فلما جاء البابا بيوس الرابع ، وكان شيخاً دمث الخلق ، راودته فكرة مؤداها أن منح سر القربان بالخبز والخمر قد يهدى البروتستنت كما هدأ البوهيميين من قبل . فطلب إلى المجمع أن ينعقد من جديد في ترنت في ٦ أبريل ١٥٦١ ، ودعا إليه جميع الأمراء المسيحيين سواء الكاثوليك أو البروتستنت . وقد جلب المندوبون الفرنسيون إلى هذه الدورة الجديدة قائمة رهيبة بالاصلاحيات التي ينشدونها : القداس باللغة القومية ، والتناول بالخبز والخمر ، وزواج القسس ، وإخضاع البابوية للمجامع العامة ، وإنهاء نظام الإعفاءات البابوية (٤٥) ، ويبدو أن مزاج الحكومة الفرنسية كان في تلك اللحظة شبه هيجونوتي . وأيد فرديناند الأول هذه المقترحات ، وكان الآن إمبراطوراً ، وأضاف أن « البابا يجب أن يتواضع ، ويخضع لإصلاح شخصه ودولته وإدارته » ، أما أساطير القديسين فينبغي أن تنقى من السخافات . وأما الأديار فينبغي إصلاحها حتى « لا تعود ثروتها الطائلة تنفق بمثل هذا السفه » (٤٦) . وأندر الموقف بالخطر على بيوس ، وترقب مندوبوه افتتاح الدورة في شيء من الذعر .

وبعد تأجيلات كان دافعها الروية أو الاستراتيجية التأم شمل الدورة السابعة عشرة للمجمع في ٢٨ يناير ١٥٦٢ ، بحضور خمسة كرادلة ، وثلاثة بطارقة ، وأحد عشر رئيس أساقفة ، وتسعين أسقفاً ، وأربعة قادة ، وأربعة رؤساء أديار ، ومختلف الممثلين العلمانيين للأمراء الكاثوليك . واستجابة لطلب من فرديناند عرض ضهان بسلامة المرور لأي مندوب بروتستانتي قد يرغب في الحضور ، ولكن أحداً لم يحضر . وترعم رئيس أساقفة غرناطة وشارل كردينال اللورين حركة ترمي إلى الحد من امتيازات البابا ، فأكد أن الأساقفة لا يستمدون سلطانهم عن طريقه بل بـ « الحق الإلهي » المباشر ، وردد أسقف سقوية هرطقة من هرطقات لوثر ،

إذ أنكر أنه كان للبابا سيادة على غيره من الأساقفة في الكنيسة الأولى (٤٧) .
على أن هذا التمرد الأسقفى أطفأته البراعة البرلمانية التي أبدأها مندوبو البابا ،
وولاء الأساقفة الإيطاليين والهولنديين للبابا ، وبعض المحاملات البابوية
التي وجهت في الوقت المناسب إلى كردينال اللورين . وانتهى الأمر بتوسيع
سلطة البابا لا بالحد منها ، واشترط على كل أسقف أن يقسم يمين الطاعة
الكاملة للبابا . وأمكن تهدئة فرديناند بوعده بأن البابا سيسمح في ختام
الجمع بأن يعطى القربان بالخبز والخمر كليهما .

أما وقد فرغ الجمع من أهم نزاع واجهه ، فقد انتهى بسرعة من
أعماله الباقية . فحرم زواج الإكليروس ، وقرر توقيع عقوبات صارمة
على تسرى القساوسة . وشرع الكثير من الإصلاحات الصغيرة للهوض
بأخلاق رجال الإكليروس ونظامهم . وقرر إنشاء كليات لاهوتية يدرب
فيها الراغبون في القسوسية على عادات التقشف والتقوى . أما سلطات
الإدارة البابوية فقد اختزات . ووضعت قواعد لإصلاح الموسيقى والفن
الكناسيين ، وتقرر تغطية صور العرايا بما يكفي لمنع إثارتها للخيال الحسى .
ووضح الفارق بين عبادة الصور وعبادة الأشخاص الذين تمثلهم الصور .
وتأيد استعمال الصور الدينية بالمعنى الثاني . أما المطهر والغفرانات والتوسل
إلى القديسين فقد دوفع عنها وأعيد تعريفها . وهنا اعترف الجمع في صراحة
بالمناشد التي انبعثت عن شررها نار التمرد اللوثرى ، وقد نص أحد
القرارات على ما يأتي : -

« إن الجمع يقرر بصدد منح الغفرانات . . . أنه يجب القضاء كاية
على كل كسب إجرامى متصل بها ، باعتباره مصدراً لفساد مخزن بين
الشعب المسيحي ؛ أما عن غير ذلك من ضروب الخلل والفوضى الناجمة
عن الخرافة أو الجهل أو الاستهانة بالمقدسات أو أى سبب كائناً ما كان
- فبما أن هذه كلها لا يمكن القضاء عليها بالتحريمات الخاصة نظراً إلى

انتشار الفساد على نطاق واسع ، فان المجمع يلقي على عاتق كل أسقف واجب التعرف على ما يوجد في أسقفيته من مفاسد ، وعرضها على المجمع الإقليمي التالي ، وإبلاغها إلى الحبر الأعظم في روما بعد موافقة الأساقفة الآخرين (٤٨) .

وأجمع البابا والإمبراطور على أن المجمع قد بلغ الآن نهاية نفعه ، وفي ٤ ديسمبر ١٥٦٣ فض نهائياً وسط ابتهاج المندوبين المرهقين . بعد أن حدد طريق الكنيسة لقرون قادمة .

لقد نجحت معارضة الإصلاح البروتستنتي في أهدافها الأساسية : صحيح أن الرجال - سواء في الأقطار الكاثوليكية أو البروتستنتية - ظلوا يكذبون ويسرقون ، يغوون العذارى ويبيعون الوظائف ، يقتلون ويشنون الحرب (٤٩) . ولكن أخلاق الإكليروس تحسنت ، وروّضت الحرية الحامجة التي اندفعت فيها إيطالية النهضة فتكيفت تكييفاً مهندياً وفق مزاعم البشر . فالبغاء الذي كان صناعة كبرى في روما والبندقية أيام النهضة أخفي الآن رأسه ، وأصبحت العفة طابع العصر . وتقرر اعتبار تأليف الكتب القدرة أو نشرها جريمة كبيرة في إيطاليا . وهكذا شق نيكولو فرانكو ، سكرتير أريتينو وعدوه ، بأمر من البابا بيوس الخامس عقاباً على تأليفه كتاب Priapeia (٥٠) . أما أثر القيود الجديدة على الفن والأدب فلم يكن مؤذياً أذى مطلقاً لا خلاف عليه ؛ مثال ذلك أن فن الباروك انبعث على استحياء من مكانه المغمور ؛ كذلك إذا نظرنا من زاوية أدبية نخالصة فاننا لا نجد تاسو ، وجواريني ، وجولدوني ، يهبطون هبوطاً عنيفاً عن مرتبة بوياردو ، وأريوستو ، ومكافيللي المسرحي ؛ وقد أقبل أعظم عصور أسبانيا الأدبية والفنية في ملء « الرجعية الكاثوليكية » . ولكن الفرحة التي كانت طابع إيطالية النهضة انطفأت ، وفقدت النساء الإيطاليات بعض ذلك السحر والابتهاج الذي أتاها من حريتهن السابقة لحركة الإصلاح البروتستنتي . وساد إيطاليا عصر أقرب ما يكون إلى

البيورتانية نتيجة لقيام أخلاقية قائمة واعية . وانتعشت الديرية . وكانت خسارة للنوع الإنساني ، من وجهة نظر العقل الحر ، أن تقضى الرقابة الكنسية والسياسية على حرية الفكر النسبية التي سادت أيام النهضة ، وكانت مأساة أن تعاد محكمة التفتيش في إيطاليا وغيرها من البلاد في الوقت الذي أخذ العلم ينبثق فيه محطماً قشرته الوسيطة . وضحت الكنيسة عن عمد بالطبقات المفكرة في سبيل الأكثرية المتدينة التي صفتت لقمع أفكار قد تذيب إيمانها المعزى .

كانت الإصلاحات الكنسية حقيقية ودائمة . وإذا كانت الملكية البابوية قد رفع مقامها فوق الأرستقراطية الأسقفية للمجامع ، فإن هذا كان يساير روح العصر ، حين كانت الأرستقراطيات في كل بلد ، عدا ألمانيا ، تفقد سلطانها ليتقلده الملوك . وأصبح البابوات الآن أرقى من الأساقفة خلقياً ، وأمكن تنفيذ النظام الذي تطلبه الإصلاح الكنسي على يد سلطة متركزة خيراً من سلطة مقسمة ، وأنهى البابوات محاباتهم لأقربائهم ، وشفوا الإدارة البابوية من تسوياتها الباهظة الثمن ورشوتها المفضوحة . وأصبحت إدارة الكنيسة بشهادة من فحصوا هذا الأمر من غير الكاثوليك نموذجاً للكفاية والنزاهة (٥١) . وأدخل استعمال مقصورة الاعتراف المظلمة (١٥٤٧) وجعل إجبارياً (١٦١٤) ، ولم يعد التسييس عرضة لأن يفتنه جمال بعض المعترفات . أما باعة صكوك الغفران الحائلون فقد اختفوا ، وأما الصكوك فقد خصصت في معظم الحالات للعبادات الورعة ولأعمال البر لا للتبرعات المالية ، وبدلاً من أن يتقهقر رجال الإكليروس الكاثوليك أمام زحف البروتستنت أو الفكر الحر ، انطلقوا ليعيدوا اقتناص فكر الشباب وولاء السلطان . وأصبحت روح اليسوعيين ، تلك الروح الواثقة ، الإيجابية ، النشيطة ، المدربة على النظام ، هي روح الكنيسة المجاهدة .

لقد كان شفاء الكنيسة في جملته شفاء مذهلاً ، وثمره من أروع الثمرات التي جادت بها حركة الإصلاح البروتستنتي .

كلمة ختامية

النهضة ، والإصلاح البروتستنتي ، والتنوير

إن النهضة والإصلاح البروتستنتي هما ينبوعا التاريخ الحديث ، والمصدران المتنافسان للتجديد الفكري والخلق الذي طرأ على الحياة الحديثة . وقد ينقسم الناس حسب ميولهم وانتسابهم هنا ، حسب دينهم الواعي الذي يدينون به للنهضة التي أطلقت العقل من عقاله وأضفت الجمال على الحياة ، أو حسب عرفانهم بصنيع الإصلاح البروتستنتي الذي شحذ الإيمان الديني والحس الخلق . والخلاف بين إرزمس ولوثر متصل ، وسوف يتصل ، لأن الحقيقة التي قد يصل إليها الناس في هذه الأمور الكبيرة هي ثمرة الجمع بين الأضداد ، وستشعر هذه الحقيقة دائماً بأبوتها المزدوجة .

ويمكن القول إن الخلاف من بعض النواحي سلالى وجغرافى ، خلاف بين اللاتين والتيوتون ، بين الجنوب الحسى الطلق والشمال الجلد المعتم ، بين شعوب هزمت على يد روما وتلقت منها التراث الكلاسيكى ، وشعوب قاومت روما - وبعضها هزم روما - وأحبت جذورها وأرضها أكثر كثيراً من اليونان جالبي المواهب أو الرومان حاملى القوانين . لقد قسمت إيطاليا وألمانيا فيما بينهما تشكيل النفس الحديثة ، إيطاليا بالرجوع إلى الأدب والفلسفة والفنون الكلاسيكية ، وألمانيا بالرجوع إلى الإيمان والشعائر المسيحية الأولى . وكانت إيطاليا على وشك النجاح في محاولتها الثانية لغزو ألمانيا - بالعشور والمذهب الإنسانى هذه المرة ؛ ولكن ألمانيا قاومت ثانية ، وطردت الكنيسة وأسكتت الإنسانين . وأنكرت حركة الإصلاح البروتستنتي النهضة واهتمامها بالشئون والمباهج الدنيوية ، وعادت إلى تلك الناحية (وهى ناحية واحدة فقط !) من نواحي العصور الوسطى التي عدت إنجازات البشر ومباهجهم تافهة باطلة ، ووصفت الحياة بأنها واد

للموع ، ودعت الخطاة إلى الإيمان والتوبة والصلاة . فأما إيطاليو النهضة الذين قرأوا مكيافللي وأريتينو ، فقد رأوا في هذا انتكاساً إلى العصور الوسطى ، وعوداً إلى عصر الإيمان في مرحلة المراهقة المناضلة التي يمر بها عصر العقل . وقد ابتسم الإيطالي الذي استمع إلى يومبوناتزي ، وعاش تحت حكم بابوات النهضة الهين اللين ، حين وجد لوثر وكالفن وهنري الثامن يحتفظون بكل العقائد الحارقة التي اتسم بها الإيمان الوسيط - كتاب مقدس من إملاء الله ، وإله مثلث الأقانيم ، وإيمان بالقضاء والقدر ، وخليقة خلقت بأمر إلهي ، وخطيئة أصلية ، وتجسد ، وولادة من عذراء ، وتكفير ، ودينونة أخيرة ، وجنة ونار - ثم يرفضون بالضبط عناصر المسيحية الوسيطة - كعبادة العذراء ، والإيمان بإله ملؤه المحبة والرحمة ، وتوسل إلى القديسين الشفعاء ، والطقوس التي تزدان بكل الفنون - تلك عناصر التي أضفت على ذلك الإيمان رقة وعزاء وجمالاً يبرر التغاضي عن الأساطير تغاضياً سمح بالاستمتاع بالفنون .

كان الكاثوليكي الصادق الإيمان حجته ضد حركة الإصلاح البروتستنتي . فهو أيضاً يكره العشور ، ولكنه لا يستطيع أن يتصور القضاء على الكنيسة . لقد كان عليماً بأن الرهبان أخذ يفلت زمامهم ، ولكنه شعر بأنه ينبغي أن يفسح في الدنيا مكان ومؤسسات لرجال انقطعوا للتأمل والدرس والصلاة ، وكان يقبل كل كلمة من الكتاب المقدس بشرطين : أن ناموس المسيح أبطل ناموس موسى ، وأن للكنيسة سلطاناً مساوياً لسلطان الكتاب لأن مؤسسها هو ابن الله ، ويجب أن يكون لها الحق النهائي في تفسير الكتاب والملاءمة بينه وبين حاجات العيش المتغيرة . وماذا تكون النتيجة لو أن فقرات من الكتاب ملتبسة متناقضة في ظاهرها تركت ليفسرها كل فرد تفسيراً حراً ويحكم عليها كما يشاء ؟ أفلا تمزق مئات العقول الكتاب إرباً ، وألا تتحطم المسيحية وتتبدد شيعاً مقتتلة لا حصر لها ؟ .

ويواصل الكاثوليكي العصري الحجّة مروراً بكل ناحية من نواحي الحياة العصرية فيقول « لقد كان إصراركم على الإيمان دون الأعمال مدمراً ، فأفضى إلى دين توارت برودة القلب فيه خلف ورع العبارة ، وكاد البر أن يموت طوال مائة عام في مراكز انتصاركم . ولقد قضيتم على سر الاعتراف وخلفتم ميثاق التوترات في نفوس البشر الذين تتنازعهم الغريزة والحضارة ، وهأنتم أولاء تعيدون متأخرين ذلك النظام الشافي تحت أشكال مريبة . ولقد دمرتم جل المدارس التي أنشأناها ، وأضعفتم الجامعات التي أسستها الكنيسة وطورتها حتى أشرفتم بها على الموت . إن قادتكم يسلمون بأن تمزيقكم الإيمان أدى إلى تدهور خلقى خطر في ألمانيا وإنجلترا . فلقد أطلقتم على الناس فوضى من الفردية في الأخلاق والفلسفة والصناعة والحكم . ولقد انتزعتم من الدين كل بهجته وجماله ، وملاّتموه بدراسة الشياطين وبالرعب ، وحكمتم على الجماهير الكبيرة من الناس باللعة الأبدية لأنهم « مرفوضون » ، وعزيتم قلة وقحة بفخر « الاختيار » والخلاص . لقد خنقتم نمو الفن ، وحيثما انتصرتم ذبلت الدراسات القديمة . لقد صادرتم أملاك الكنيسة لتعطوها للدولة والأغنياء ، ولكنكم تركتم الفقراء أفقر مما كانوا ، وأضفتم الاحتقار إلى فقرهم وتعاستهم . لقد تغاضيتم عن الربا والرأسمالية ، ولكنكم حرمتم العمال أيام الراحة المقدسة التي منحتم إياها كنيسة رحيمة . لقد رفضتم البابوية لا لشيء إلا لتمجدوا الدولة ، وأعطيتم الأمراء الانانيين حق تقرير ديانة رعاياهم ، واستخدام الدين سداً لخروجهم . لقد فرقتم بين الأمة والأمة ، وقسمتم كثيراً من الأمم والمدن على ذواتها ؛ لقد حطمتم الضوابط الأدبية الدولية على القوى القومية ، وخلفتم فوضى من القوميات المقتتلة . لقد أنكرتم سلطان كنيسة أسسها ابن الله باعترافكم ، ولكنكم أقررتم الملكية المطلقة ، ومجدتم حق الملوك الإلهي . ودمرتم وأنتم لا تدرّون

قوة « الكلمة » ، وهى البديل الوحيد لقوة المال أو السيف . وادعيتم حق الحكم الشخصى ، ولكنكم أنكرتموه على غيركم حالما أمكنكم هذا ، وكان رفضكم التسامح مع المنشقين أقل وضوحاً للأفهام من رفضنا ، لأننا لم ندافع قط عن التسامح ، فليس فى وسع إنسان أن يتسامح إلا فى الأشياء التى لا يبالى بها . ثم انظروا ما أفضى إليه حكمكم الشخصى هذا . فكل رجل يصبح بابا ، ويحكم على تعاليم الدين قبل أن يبلغ من العمر ما يتيح له فهم وظائف الدين فى المجتمع والأخلاق ، وحاجة الناس إلى إيمان دينى . وإن ضرباً من جنون التزيق والتفريق لا تكبحه أى سلطة مجمعة موحدة يلقى باتباعكم فى منازعات بلغ من سخفها وعنفها أن الناس راحوا يتشككون فى الدين كله ، وكادت المسيحية ذاتها تصبح فى خطر الانحلال ، وكاد الناس يتركون فى عرى روحى أمام الموت ، لولا وقوف الكنيسة صامدة وسط كل تقلبات الرأى والجدل ، وكل مستحدثات العلم والفلسفة ، ولولا أنها تحفظ قطيعها الذى التأم شمله ، منتظرة ذلك الوقت الذى يخضع فيه المتفهمون منكم ، والمسيحيون الحقيقيون ، كبرياء الفردية والعقل لحاجات البشر الدينية ، ويعودون إلى الحظيرة الوحيدة القادرة على صون الدين برغم الايديولوجيات المجدفة التى راجت فى هذا العصر الشقى .

ترى أيستطيع البروتستنت الرد على هذا الاتهام ؟ « يجب ألا تنسى السبب فى انشقاقنا : فلقد فسدت كنيستكم الكاثوليكية سواء فى ممارساتها أو فى أشخاصها ، وكف قساوستكم عن أداء وظائفهم ، وكان أساقتكم متعلقين بنعيم الدنيا ، وبابواتكم معرة العالم المسيحى ، ألا يعترف مؤرخوكم بهذا ؟ لقد طالبكم رجال أمناء بأن تصلحوا ما فسد ، محتفظين بولائهم للكنيسة ؛ فوعدتم وتظاهرتم بالإصلاح ، ولكنكم لم تفعلوا ، بل إنكم على العكس من ذلك أحرقتم بالنار رجالاً من أمثال هس وجيروم البراغى لأنهم رفعوا عقائرتهم مطالبين بالإصلاح . لقد بذلت مئات الجهود

لإصلاح الكنيسة من الداخل ، ولكنها أخفقت ، إلى أن أكرهتكم حركة إصلاحنا البروتستنتي على العمل ؛ وحتى بعد ثورتنا أصبح البابا الذي حاول تطهير الكنيسة مثار هزء روما وسخريتها .

« إنكم تتباهون بأنكم خلقتم النهضة ، ولكن الكل مجتمعون على أن النهضة كانت تنبعث وسط فساد خلقي ، وعنف ، وخيانة ، لم تعرفها أوروبا منذ عهد نيرون ؛ أفلم تكن محقين في الاحتجاج على هذه الوثنية ، التي تختال عجباً حتى في الفاتيكان ؟ وإذا سلمنا أن الأخلاق انحدرت حيناً بعد أن بدأت حركة إصلاحنا ، فإن إعادة بناء حياة خلقية بليت أسسها وخدماتها الدينية استغرق بعض الوقت ، وأخيراً أصبحت أخلاقيات البلاد البروتستنتية أسمى بكثير من أخلاقيات فرنسا وإيطاليا الكاثوليكيين .

قد ندين بيقظتنا الذهنية للنهضة ، ولكننا ندين بشفائنا الخلقى لحركة الإصلاح البروتستنتي ، فقد أضافت دعم الخلق إلى تحرير العقل ، ثم إن نهضتكم اقتصرت على الأرستقراطية والمفكرين ، لقد احتقرت الشعب ، وأغضت عن خداع باعة صكوك الغفران لأفراده ، وعن غش مستغلي الخرافات من المتظاهرين بالنسك . أو لم يكن خيراً تحدى هذا الاستغلال المالى الصارخ لآمال البشر ومخاوفهم ؟ لقد رفضنا الصور والتماثيل التي بثتموها في كنائسكم ، لأنكم كنتم تسمحون للناس أن يعبدوا الصور ذاتها ، كما كان يحدث حين فرضتم عليهم الركوع أمام الدمي المقدسة المحمولة في مواكب تخترق الشوارع . أما نحن فقد جرونا على إرساء ديانتنا فوق إيمان قوى نشيط ، بدلا من محاولة تخدير عقول الناس بالطقوس ؟

« وقد اعترفنا بأن السلطة الزمنية من عند الله - كما اعترف لاهوتيوكم من قبلنا - لأن النظام الاجتماعى يتطلب حكومة محترمة . ولم نرفض سلطة البابوات الدولية إلا بعد أن استعملوها استعمالا فاضحاً ، لا للحكم بالعدل بين الأمم بل لخدمة مآربهم المادية . وعجزُ بابواتكم الأنايين عن توحيد

أوروبا في حملة صليبية ضد العثمانيين يدل على أن خيانة البابوية حطمت وحدة العالم المسيحي قبل حركة الإصلاح البروتستنتي بزمن طويل . ومع أننا أيدنا حق الملوك الإلهي ، فاننا أيضاً شجعنا نمو الديمقراطية في إنجلترا واسكتلندا وسويسرة وأمريكا ، في حين كان قساوستكم في فرنسا وإيطاليا وأسبانيا يخضعون للملوك ؛ وقد حطم تمردنا على سلطة كنيستكم تعويذة الحكم المطلق ، وهياً أوروبا لمساءلة كل ألوان الاستبداد دينية كانت أو علمانية . إنكم تعتقدون أننا جعلنا الفقراء أفقر مما كانوا . ولكن هذه أيضاً كانت مرحلة عابرة ، فالرأسمالية ذاتها التي استغلت فقر الفقراء حيناً تعلمت أن تغني الرجل المتوسط كما لم يغن من قبل ؛ وما من ريب في أن مستوى المعيشة في إنجلترا وألمانيا وأمريكا البروتستنتية أعلى منه في إيطاليا وأسبانيا وفرنسا الكاثوليكية .

« وإذا كنتم اليوم أقوى مما كنتم بالأمس ، فانما الفضل في هذه القوة لنا . فاذا كان يحدث لو لم تكرهكم حركة الإصلاح البروتستنتي على إصلاح الإدارة البابوية ، وإنقاذ إكليروسكم من التسرى ، وتنصيب رجال مؤمنين على كرسى البابوية بدلا من الوثنيين ؟ ولئن تدينون بالفضل فيما يتمتع به إكليروسكم اليوم من سمعة النزاهة ؟ أجمع ترنت ؟ ولكن لئن تدينون بالفضل في مجتمع ترنت إن لم يكن لحركة الإصلاح البروتستنتي ؟ فلولا ذلك الضابط لوصلت كنيستكم انحدارها من المسيحية إلى الوثنية حتى ينتهي الأمر بتتويج بابواتكم على عالم لا أدرى أبيقورى . وحتى مع هذا التجديد الذي فرضناه على كنيستكم ، فان الشعوب التي تقبل عقيدتكم أشد إهمالا للدين ، وتشككاً في المسيحية ، من الشعوب التي اعتنقت الإصلاح البروتستنتي ؛ ويكفي أن تقارنوا بين فرنسا وإنجلترا :

« ولقد تعلمنا أن نوفق بين تديننا وبين حرية العقل ، وأقطارنا البروتستنتية هي التي شهدت أعظم ازدهار للعلم والفلسفة . ونحن نأمل

أن نلأثم بين مسيحيتنا وبين تقدم المعرفة - ولكن أنى يتيسر هذا لكنيسة ترفض كل علم القرون الأربعة الماضية ؟ » .

وهنا يتدخل الإنسانى فى المناقشة ، فيهدم البيتين جميعاً على رأسه . هذا فخر البروتستنتية وضعفها ، فهى تستهوى العقل ، الذى لا يفتأ يتغير ، أما قوة الكاثوليكية فى رفضها أن تكيف نفسها وفق نظريات العلم ، التى ثبت من الخبرة التاريخية أنها قلما تعيش بعد القرن الذى ولدت فيه . إن الكاثوليكية تستهدف إشباع مطالب الناس الروحية ، الناس الذين قلما سمعوا بكوبرنيق وداروين ، ولم يسمعوا قط بسبينوزا وكانط ؛ وهؤلاء الناس كثيرون خصبون ، ولكن أنى لدين يتحدث إلى العقل ، ويتمركز حول العظة ، أن يكيف نفسه وفق كون آخذ فى الاتساع ، كون أصبح فيه الكوكب الذى ادعى أنه تلقى ابن الله نقطة عابرة فى الفضاء ، وليس النوع الذى مات من أجله سوى لحظة فى مشهد الحياة الدائم التغير ؟ وما الذى يحدث للبروتستنتية إذا أنضج الكتاب الذى اتخذته أساسها الوحيد والمعصوم للنقد « الأعلى » الذى يحيله من كلمة الله إلى أدب العبرانيين وإلى تحول المسيح فى لاهوت بولس الصوفى ؟ .

« ليست المشكلة الحقيقية التى تواجه العقل الحديث ذلك الخلاف بين الكاثوليكية والبروتستنتية ، ولا بين الإصلاح البروتستنتى والنهضة ؛ إنها بين المسيحية والتنوير - هذه الحقبة التى ليس من اليسير تحديد تاريخها ، التى بدأت بفرانسيس بيكن ، وعقدت آمالها على العقل والعلم والفلسفة ؛ وكما كان الفن ركيزة النهضة ، والدين روح الإصلاح البروتستنتى ، فكذلك أصبح العلم والفلسفة إلهى التنوير . ومن وجهة النظر هذه كانت النهضة تسير فى الخط المباشر للتطور العقلى الأوروبى ، وأفضت إلى الاستنارة ، أما حركة الإصلاح البروتستنتى فكانت انحرافاً عن ذلك الخط ، ورفضاً للعقل ، وتأكيذاً جديداً للإيمان الوسيط .

« ومع ذلك فان حركة الإصلاح البروتستنتى برغم تعصبها فى أول عهدها أسدت صنيعين لحركة التنوير ، فقد حطمت سلطان العقيدة ، وبعثت عشرات الملل والنحل التى لو وجدت قبلها لماتت حرقاً ، وسمحت بأن يقوم فيما بينها جدل كان من القوة بحيث اعترف فى النهاية بأن العقل هو المحكمة التى يتعين على جميع المذاهب أن ترفع أمامها عن قضاياها ما لم تكن مسلحة بقوة مادية لا تقاوم . وفى تلك المرافعة ، فى ذلك الهجوم والدفاع ، تضعضت كل المذاهب والعقائد ، ولم ينقض قرن على تمجيد لوثر للإيمان حتى أعلن فرانسيس بيكن أن المعرفة قوة . وفى ذلك القرن السابع عشر بعينه قدم المنكرون من أمثال ديكارت وهويز وسبينوزا ولوك الفلسفة بديلاً للدين أو أساساً له . وفى القرن الثامن عشر جهر هلفتيوس وهولباك ولامترى بالإلحاد ، ونعت فولتير بالتعصب لأنه آمن بالله . هذا هذا هو التحدى الذى واجهته المسيحية ، فى أزمة أعمق كثيراً من الجدل بين الترجمة الكاثوليكية والبروتستنتية لعقيدة العصر الوسيط . والجهد الذى بذلته المسيحية للبقاء برغم كوبرنيق وداروين هو المسرحية الأساسية للقرون الثلاثة الأخيرة . فليت شعري أى قيمة لصراعات الدول والطبقات بالقياس إلى تلك المعركة الفاصلة الكبرى ، هرجدون النفس الإنسانية ؟ » .

الآن إذ نلقى إلى الوراء بنظرة على هذه القصة المتعرجة التى روتها هذه الصفحات الألف ، ندرك أننا نستطيع التعاطف مع جميع الأطراف المقاتلة . نستطيع أن نفهم غضب لوثر على فساد روما وتسلطها ، وكره الأمراء الألمان أن يروا العطايا الألمانية تسمن إيطاليا ، وعزم كالفن ونوكس على بناء جماعات خلقية مثالية ، ورغبة هنرى الثامن فى أن يكون ملكه وريث ، وأن يكون له على مملكته سلطان . ولكننا نستطيع أن نفهم أيضاً آمال إرزمس فى إصلاح لا يسمم العالم المسيحى بالحقد ، ونستطيع أن نشعر بفرع الأتقياء من أساقفة روما مثل كونتاريني مما يحتمل من تمزيق

كنيسة ظلت القرون حاضنة وحارسة للحضارة الغربية ، وما زالت أمنع حصن ضد فساد الخلق والفوضى واليأس .

إن شيئاً من هذه الجهود لم يضع سدى . فالفرد يستسلم للموت ، ولكنه لا يموت إذا خلف للبشرية شيئاً . لقد عاونت البروتستنتية في الوقت المناسب على تجديد حياة أوروبا الخلقية ، وطهرت الكنيسة نفسها فغدت منظمة أضعف سياسياً وأقوى خلقياً مما كانت . وثمة درس واحد ينبعث ويعلو فوق دخان المعركة . وهو أن الدين يكون في أفضل حالاته إذا اضطرت للعيش في ظروف المنافسة ؛ وهو ينزع إلى التعصب متى وحيثما افتقر إلى التحدي وغدا السيد الأعلى . وأعظم ما جادت به حركة الإصلاح البروتستنتي هو تزويدها أوروبا وأمريكا بتلك المنافسة الدينية التي تشحذ همّة كل دنيء ، وتنهبه إلى التسامح ، وتهب عقولنا المشتهة لذة الجرية وامتحانها .

تشجع أيها القارئ ! فلقد قاربنا النهاية .

المراجع

CHAPTER XXXV

1. Putnam, *Books*, II, 40 - I,
2. Luther, *Works*, IV, 128.
3. Janssen, III, 355.
4. *Ibid.*, 356.
5. 363.
6. Luther, IV, 156.
7. Richard, *German Civilization*, 289; Janssen, III, 358.
8. Paulsen, *German Education*, 56-7.
9. Luther, IV, 128.
10. Janssen, XIII, 260, 264.
11. *Camb. Mod. Hy*, II, 468 ; Gasquet, *Eve*, 42.
12. Traill, III, 93.
13. Owen, J., *Skeptics of the French Renaissance*, 438.
14. Graves, F., *Peter Ramus* 15.
15. *Camb. Hy of Poland*, I, 274
16. Elyot, *The Governor*, I, 21.
17. *Ibid.*, I, 11.
18. Watson, F., *Luis Vives*, 33.
19. In Haydn, *Counter-Renaissance*, 242 .
20. *Ibid.*, 199.
21. Sichel, *Women* 47.
22. Marot, *Rondeau* 13. in Ma - ulde, 165 .
23. France, A., *Rabelais*, 6,
24. Smith, *Erasmus* , 414; Fra - nce , *Rabelais*, 38.
25. Faguet, 211.
26. Rabelais, *Gargantua*, ed, Cluny, *Introd.*, xxi.
27. Michelet, III, 300.
28. Rabelais, *Introd.*, xxiii.
29. Owen, *French Renaissance*, 619,
30. Rabelais, *Works*, bkii, ch. 8,
31. Tilley, *Studies in the French Renaissance*, 85 f.
32. Nock, *Rabelais*, 105,
33. Brunetiere, *Manual of French Literature*, 46n.
34. France, *Rabelais*, 216.
35. Smith, *Reformation*, 195n.
36. France, 124.
37. Sichel, *Women*, 239.
38. Sichel, *Catherine' de Medici*, 245.
39. La Tour, *Origines*, IV, 413.
40. Roeder, *Catherinede Medici*, 510.
41. Holzkecht, *Backgrounds of Shakespeare*, 270
42. *Camb. Hy of English Liter - ature*, III. 189.
43. Richard, *German Civilization*, 151.
44. Janssen, XIII, 467.
45. In Bainton, *Reformation*, 129
46. *En. Brit.*, IX, 675.
47. Putnam, *Books*, II, 243.
48. Janssen, XI, 317 f.
49. In Friedell, *Cultural Hy of the Modern Age* I, 232.
50. Janssen, XII, 324 f.
51. *En Brit.*, XXXIII, 1192.
52. In Trend, *Ciullization of Spain*, 101.
53. Prescott, *Ferdinand*, II, 568n.
54. *Ibid.*, 569n; *Camb. Mod. Hy*, V, 495.

55. Hefele. *Ximenez*, 101; Hume, *The Samish People*, 348.
56. Allen. *Political Thought*, 119.
57. Diaz del Castillo. *True Hy of Comquest of Mexico*, xi.
58. Mendoza, *Lazarillo de Tormes*, Introd., 3.
60. Mendoza, 71.
21. Bacon, Fr., *Henry, VII*, i *Works*, VI, 245.
22. Blomfield, *Renaissance Architecture in England* 8; Lees Milne, *Tudor Renaissance*, 31
23. Ibid.
24. 45.
25. Blomfield, 11.
26. Ganz., P., *The Paintings o Hans Holbein*, 218.
27. So Stange, *German Painting* ..., but Ganz 223, assigns i to 1528-30.
28. En. Brit., VIII, 679a.
29. Stange, 22.
30. Janssen, XI, 48.
31. Ibid.
32. Ganz, 284.
33. Woltmann, *Holbein and His Time*, 454.
34. Calvert, *Cordova*. 97.
35. Dieulafoy, *Art in Spain and Portugal*, 230.
36. Calvert, *Sculpture in Spain* 125; bur Sirling - Maxwell, *Annals of the Artists of Spain*, I, 126, questions the story.
37. Dieulafoy, 336.

CHAPTER XXXVI

1. In Coulton, *Ari and the Reformation*, 408.
2. Janssen, XI, 56.
3. Calvin, *Institutes*, I, xi 12.
4. Michelet, III, 295.
5. Dimier, *French Painting in the Sixteenth Century*, 51.
6. Tavannes in Sichel, *Catherine*, 294.
7. Vasari, II, 355.
8. Ibid.
9. Blomfield, *Hy of French Architecture*, I, 81.
10. Lacroix, *Arts of the Middle Ages*, 151.
11. Ward, *Architecture of the Renaissance in France*, II, 125.
12. Sichel, *Catherine*, 394.
13. *Réalités* magazine, March, 1954, p. 27.
14. Conway, *The Van Eycks*, 494.
15. Olück, *Pleter Brueghel le Vieux*, 7.
16. Conway, 492.
17. Olück, *Brueghel: Details from His Pictures*, 10 - 11.
18. Craven, *Treasury of Art Masterpieces*, 112.
19. Smith, Luther, 176.
20. Bond Fr., *Westminster Abbey*, 131.

CHAPTER XXXVII

1. Schaff, *Swiss Reformatian*, 182.
2. Janssen, XII, 292.
3. Traill, III, 269.
4. janssen, XII, 307.
5. Thorndike, *Hy of Magic and Experimental Science*, V, 231.
6. Coulton, *Medieval Village*, 268.
7. Janssen. XII, 372.

8. Bainton, *Hunted Heretic* 112.
9. In Kesten, *Copernicus*, 96.
10. Lacroix, *Science and Literature in the Middle Ages*, 211, Thorndike, V, 175, 255-9.
11. Bainton, *Hunted Heretic*, 112.
12. Smith, *Luther*, 310.
13. Roeder, *Catherine de' Medici*, 368.
14. Lecky, *Rationalism*, II, 3.
15. Lacroix, *Military, and Religious Life*, 444; Smith, *Reformation*, 656.
16. Friedell, I, 283.
17. Lea, *Studies in Church History*, 588.
18. Lea, *Inquisition in Spain*, IV, 220.
19. Lecky, *History of European Morals*, II, 54.
20. Traill, III, 326; Froude, *Henry VIII*, III, 191.
21. Lea, IV, 212-25.
22. Janssen, XII, 355.
23. Spence, *Cornelius Agrippa*, 84.
24. Ibid.
25. Thorndike, V, 136-7.
26. Spence, 79.
27. Owen, *Evenings with the Sceptics*, II, 495-6.
28. Kesten, 196; Thorndike, V, 178 f.
29. Cath. En., IV, 352.
30. Leonardo, Notebooks, I, 310-298.
31. Cassendi in Kesten, 109.
32. Kesten, 132.
33. Ibid. 153.
34. *Commentariolus*, in Rosen, *Three Copernican Treatises*, 58.
35. Trattner, *Architects of Ideas* 28.
36. Luther, *Table Talk*, 69, in Fosdick, *Great Voices of the Reformation*, xviii.
37. In Russell, B., *History of Western Philosophy*, 528.
38. Kesten 233.
39. Ibid. 382.
40. 309.
41. 295-6.
42. Rosen, 30.
43. Kesten, 297-8.
44. E. g., Kesten. 299; Trattner 31.
45. *Prefaces and Prologues*, in Harvard Classics XXXIX, 52, f.
46. Copernicus, *De revolutionibus*, I, 5.
47. Ibid, I, 10.
48. Josiah Royce in Fletcher, J. B., *Dante*, 236.
49. In *White Warfare of Science with Theology*, I, 212.
50. In Agricola *De re metallica*, 595.
51. Penrose *Travel and Discovery*, 306.
52. R. I. Mantiri of Indonesia has argued unconvincingly that Magellan was not killed on Mactan, but chose to remain behind and to found a kingdom in the Celebes.
53. Castiglioni *History of Medicine* 421.
54. Sigerist *The Great Doctors* 125.
55. In Saunders & O'Malley, *The Illustrations from the Works of Andreas Vesalius* 14.
56. Locy, *Biology and Its Makers*, 28.

57. Saunders, 14; italics mine.
58. Ibid., 15.
59. In Haydn, *Counter-Renaissance*, 198,
60. Vesallus, *De humani corporis fabrica v*, 15, in Thorndike, V, 526.
61. Locy, 35.
62. Letter of Vesalius June 13. 1546. in Thorndike, V, 529.
63. Sarton, III-1, 267.
4. Saunders, 37.
65. Ibid, 39.
66. Walsh. *Popes and Science*. 117
67. *Speculum*, April, 1928, P.193,
68. Castiglioni, 466.
69. Janssen XIV, 68.
70. Sigerist, 131.
71. Ibid., 111. The usual interpretation of *Paracelsus* as meaning "Beyond Celsus" is stultified by the very minor rank of Celsus (Ist cy A. D) in the history of medicine.
72. Pachter, *Magic into Science: the Story of Paracelsus*, 92.
73. Ibid., 105 6
74. Cf. Passage in Robinson. D. S., *Anthology of Modern Philosophy*, 13-14.
75. Pachter, 67, 112-116.
76. Thorndike, V, 628.
77. *Opus Poramirum*, in Pachter, 129.
78. Thorndike, V, 665.
79. In Pachter, 210.
80. Ibid., 211.
81. Ibid,
82. 147,
83. 152-3
84. 163.
85. 158.
85. 155.
87. 168.
88. 187.
- 98, 167.
90. Inscription on engraving of Paracelsus in Vienna State Library.
91. Pachter 108, 229.
92. Ibid, 4.
93. Commentary on Galatians, iii, 6, in Janssen XIV, 121.
94. Robertson, *Freethought*, I, 399.
95. Ibid., 389 .
96. *Table Talk*, 66.
97. La Tour, IV, 417.
98. Sichel, *Women*, 225.
99. In Mallam, *Introd to the Literature of Europe*, II, 140,
100. Montaigne Letter to M. de Mesmes in Sichel, *Montaigne*, 21.
101. In Rucker, R., *Nationalism and Culture*, 134.
102. In Taylor, *Thought and Expression in the 16 th Cy*, 1,381.
103. *Speculum*, Oct, 1933. P. 431 .
104. Owen J., *Skeptics of the French Renaissance*, 505.
105. Ibid., 539.
106. Graves, *Peter Ramus*, 108. Italics mine.
107. Owen, 529.
108. Ibid., 534 5 ; Michelet, III, 474; Graves, 106-7.
109. Ibid., 106.
110. Micheler, III, 474.

CHAPTER XXXVIII

1. Pastor, X, 310; XII, 494; Robertson, *Freethought*, I, 408.
2. Noyes, *Ferrara* 203-19.
3. *Camb. Mod. Hy*, II, 386.
4. Trend, *Civilization of Spain*, 123.
5. Schaff, *Swiss Reformation*, 651.
6. Pastor, XI, 3.
7. *Ibid.*, X, 444.
8. Carpacciolus in Ranke, *Hy of the Popes*, I, 131.
9. Janelle, *Catholic Reformation* 64.
10. Pastor, XI, 134.
11. *Ibid.*, 155 f.
12. Ranke, *Popes*, I, 117.
13. In Pastor, XI, 164 f.
14. *Ibid.*, 192.
15. McCabe, *Crises in the History of the Papacy*, 319.
16. Voltaire, *Selected Works*, ed. McCabe, IV, 216.
17. Fülöp-Miller, *Saints That Moved the World*, 333.
18. *Ibid.* 350.
19. 354.
20. James, *Varieties of Religious Experience*, 414.
21. Fülöp-Miller, 375.
22. James, 411.
23. Fülöp Miller, 367.
24. *Ibid.*, 396.
25. 405.
26. 419.
27. 274.
28. Ignatius, St., *Autobiography*, 28.
29. *Ibid.*, 40.
30. 54,
31. Cath. En., VII, 640
32. Fülöp-Miller' 302.
33. *Camb. Mod. Hy*, II, 657; McCabe, *Candid Hy of the Jesuits*, 8; Ranke, *Popes*, I, 173n.
34. Longridge, *The Splritual Exercises of St. Ignatius Loyola*, 119.
35. Seagkick, *Ignatius Loyolo*, 350; McCabe, *Candid Hy* 40 .
36. Sedgwick, 182.
37. Billeoc, 228-234.
38. McCabe, 32.
39. Sedgwick, 221.
40. *Ibid.*, 215.
41. Symonds, *The Catholic Reaction*, I, 215.
42. Report of Father. Gonzalez in Sedgwick. 344.
43. Fülöp-Miller, 319-20
44. Cath En., VII, 643.
45. Sedgwick, 111.
46. Penrose, *Trauel and Discovery*, 69.
47. Campbell, Thos., *Jesuits*, 77.8
48. *Ibid.*, 78.
49. 84.
50. McCabe.84.
51. Actno, *Lectures*, 115.
52. Robertson, *Charles V*, II, 78.
53. Pastor, XIII, 222.
54. Graves, *Hy of Education during the Middle Ages*, 4 2
55. Smith *Reformation*, 666.

CHAPTER XXXIX

1. Pastor, VII, 6.
2. *Ibid.*, 5.

3. Pastor, X, 385.
4. XI, 40.
5. Cellini, *Autobiography*, i, 123.
6. Pastor, XI, 50.
7. *Camb. Mod. Hy*, II, 233.
8. Ranke, *Popes*, I, 125.
9. Froude, *Council of Trent*, 313.
10. Pastor, XI, 356.
11. XII, 61 f.
12. *Ibid.*, 154.
13. Robertson, *Charles V*, II, 401
14. Pastor, XIV, 72
15. Armstrong, *Charles V* II, 361.
16. Pastor, XIV, 126.
17. Ranke, *Popes*, I, 218.
18. Pastor, XIV, 345.
19. *Ibid.*, 142-3.
20. Ranke, I, 226.
21. *Ibid.*, 227.
22. Acts, XIX, 19.
23. Putnam, *Censorship of the Church of Rome*, I, 1.
24. Draper, *Hy of Intellectual Development*, II, 214.
25. Pastor, XIV, 277 f.
26. Sirpi, *Isioria del Concilio Tridentino*, II, 91, in Symonds, *Catholic Reaction*, I, 154.
27. Robertson, *Freethought* I, 456-7.
28. Pastor, XII, 503.
29. Ranke, I, 159.
30. Pastor, XII, 508.
31. XIV, 286.
3. *ibid.*, 300.
33. *Ibid.*
34. 414f.; Ranke, I, 235.
35. *Ibid.*, 245n.
36. Admitted by Janelle. 78.
37. *Ibid.*, 71.
38. *Camb. Mod. Hy*, II, 664, 678.
39. Sarton, II-2, 916.
40. Ranke, I, 153; *Camb. Mod. Hy*, II, 667; Froude, *Edward VI*, 9 f.
41. Ranke, I, 155; *Comb. Mod. Hy*, II, 668.
42. Lea, *Sacerdotal Celibacy*, 518
43. Froude, *Council of Trent*, 283
44. Pastor, XIII, 116.
45. *Camb. Mod. Hy*, II, 675; Ranke, I, 252.
46. *Ibid.*, 251.
47. *Camb. Mod. Hy*, II, 680.
48. Session XXV; *Cath. En.*; VII, 787.
49. For Italy cf. Symonds, *Catholic Reaction*, I, 214, 333; for Spain, Lea, *Auricular Confession*, II, 426.
50. Lacroix, *Prostitution*, II, 1156
51. Figgis, *From Gerson to Gr. otius*, 43; Robertson, *Charles V*, II, 515-6; Tain. *Italy: Rome and Naples* 240.

تصويب الاخطاء الطباعية

نورد الصواب وحده فيما يلي :

صفحة	سطر	صفحة	سطر
٨	٤	٧٥	٦
١١	٤		٨
١٥	١٧	٨٤، ٨٣	٢٤
١٦	١٢	٨٧	٨
١٧	١٦	٨٨	١
٢٤	٢١		١٦
٢٥	٥	٨٩	٨
٢٦	١٤		٢١
٢٩	١٥	٩٥	١٥
٤١	٤	٩٩	٦
	٨	١٠٠	١٣
٤٢	١٦	١٠١	١
٥٠	١٣	١٠٣	٣
٥١	١٨، ١٧		٧
٥٣	١٠	١٠٥	٩
٥٤	٢		١٩
٥٥	٢٠	١٠٦	٨
٦٠	٨	١٠٨	١٨
٦٧	٢٠	١١٠	١٧
٦٨	١٦	١١١	٣
٧٠	٤	١٣٨	٢٤
٧٢	١٤	١٤٥	١٣
٧٤	٢، ١	١٥٠	٢٢
	١٤		

صفحة	سطر	صفحة	سطر
١٥٤	١١	٢٠٩	٥
١٦٥	١٣		
	٢٣	٢١١	٦
١٦٦	٤	٢١٤	٩
١٦٧	١٥		
١٧٣	٢١	٢١٦	٨
١٧٤	٤	٢١٧	٦
١٧٨	٢١	٢١٨	٢٥
١٨٥	١٤	٢٢٠	١٢
١٨٦	٢٠		
١٨٧	١٧		
١٨٨	٣		
	٨	٢٢٢	٢٣
١٨٩	٤	٢٢٣	١٩
	١٦	٢٢٤	٢٢
١٩٣	٥	٢٢٧	٩
	١١	٢٣٣	٢١
	١٤	٢٣٤	١٦
١٩٤	٧		
١٩٥	١٣	٢٤٠	٧
١٩٨	٤	٢٤٦	١٣
	١١	٢٥٢	١٧
	١٤	٢٥٣	٨
	٢٤	٢٥٥	٤
٢٠٢	٢١		
	٢٤		
٢٠٣	٢٣		
٢٠٤	٢٤	٢٥٦	٢